اقتران اسم الله "الحكيم" باسمه "العليم" في السياق القرآني

The pairing of God's name "the wise" with his name "all-knowing" in the Qur’an

زياد الدغامين

Ziad ad-Daghamin

قسم أصول الدين، كلية الشريعة، جامعة آل البيت، الأردن

Department of Fundamentals of Religion, College of Sharia, Al-Albayt University, Jordan

الباحث المراسل: ziadkmd@gmail.com

تاريخ التسليم: (2018/11/11)، تاريخ القبول: (2019/2/26)

ملخص

سلك هذا البحث مسلك الاستقراء في دراسة اقتران اسم الله العليم باسمه الحكيم في القرآن الكريم حيث ورد ستّا وثلاثين مرّة. فبحث في معنى اسمه الحكيم واسمه العليم، وورود هذا الاقتران في القرآن. وبحث في سياق تقدّم اسمه الحكيم على العليم وسياقاته، وبحث في تقدّم اسمه العليم على الحكيم وسياقاته في كتاب الله تعالى. وخلصت الدراسة إلى أن اسمه الحكيم يتقدم في سياق بناء التصور العقدي من إثبات الوحدانية ودفع ما يتوهّمه العبد من تصورات خاطئة، وإظهار الحق، وإثبات الحشر. أما تقدم اسمه العليم فيرد في سياقات عدّة، هي: رعاية مقام النبوة، والتشريع، والصبر وعدم اليأس، والسنن الإلهية والمنافقين.

الكلمات المفتاحية: الاقتران الثنائي، الحكيم، العليم، الأسماء الحسنى، السياق القرآني.

Abstract

The study surveyed all the sixty-three instances where Allah's name the Wise got paired with His name the All Knowing. It defines the meaning of each name, and investigates the contexts of their pairing together, explicating contexts where the Wise precedes the All Knowing and vice-versa. It was found that Allah's name the Wise precedes the All Knowing in contexts where the following topics are discussed: building up faith by proving the oneness of Allah and rebutting all falsehood about it,

highlighting the truth, and proving resurrection. On the other hand, Allah's name the All Knowing precedes the Wise in contexts where the following topics are discussed: appreciating prophet-hood, giving legislations, recommending patience, clarifying Allah's law and practice with the disbelievers, and exposing hypocrites.

Keywords: Pairing of Various Names of Allah, Quranic Context.

مقدمة

طبيعة الموضوع وأهمية البحث فيه

تعدّ ظاهرة اقتران أسماء الله الحسنى من الظواهر العجيبة في النظم القرآني. وهي ظاهرة شدّت انتباه العامة قبل العلماء، فحرصوا على معرفة أسرارها وسبب ورودها في فواصل الآيات القرآنية. وبحث فيها العلماء بوصفها ظاهرة بديعة من ظواهر القرآن الكريم، فبينوا مناسبة كل فاصلة للآية التي وردت فيها، خصوصاً تلك الفواصل التي وقع فيها اقتران بين أسماء الله الحسنى. وقد بذل العلماء جهوداً قيمة في الكشف عن أسرار هذه الأسماء، فكتب الغزالي، والرازي، والقرطبي، وابن العربي في كتابه الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى. وتناوله طلبة الدراسات العليا حديثاً في رسائلهم وأطروحاتهم العلمية في مرحلتي الماجستير والدكتوراه بحثاً عن أسماء الله الحسنى، ودراستها مفردة ومقترنة، وبيان حظ العبد من هذه الأسماء.

مشكلة الدراسة

تختلف هذه الدراسة عن سابقاتها من حيث توجّهها إلى البحث في اقتران خاص بين اسمين من أسماء الله الحسنى، هو اقتران اسمه الحكيم باسمه العليم في السياق القرآني، فمتى ورد هذا الاقتران وما مناسبته؟ وما الفرق بين وروده مكياً ووروده مدنياً؟ وهل ورد مطّرداً على صفة واحدة بمعنى تقدّم فيه اسمه العليم على الحكيم على الدوام أم كان يتقدم اسمه الحكيم على العليم، ومتى كان ذلك؟ إنّ المقصد الأسنى من هذه الدراسة هو البحث عن نظام هذا الاقتران من حيث وروده في فاصلة الآية. وهل لختم الآية به من حكم أو أسرار؟ هذه جملة من الأسئلة التي تتطلب إجابات محدّدة واضحة، تتناول الموضوع وفق منهج الاستقراء التام في السياق القرآني.

إنّ الكلام في فاصلة الآية وقع في معظمه في التعريف بالله بهذين الاسمين الجليلين: العليم والحكيم. واتصل اقترانهما بعدد من القضايا العقدية والتشريعية أو قضايا تتطلب العلم والحكمة، أو لتعليل ما ورد في مضمون الآية قبلها.

الجهود السابقة

وعلى الرغم من وجود رسائل جامعية حملت عنوان: "الاقتران الثنائي بين أسماء الله الحسنى" إلا أنّ رسالة واحدة لم تحمل العنوان الذي تحمله هذه الدراسة، ولم تتناول اقتراناً واحداً

لتدرسه في القرآن الكريم دراسة استقرائية موضوعية. وهذه الدراسة تهدف إلى البحث في فاصلة خاصة. والبحث في دلالة ذلك وأثره وانعكاسه على العبد؟ وهل يمكن الخروج بقاعدة عامة يعرف من خلالها متى يرد هذا الاقتران؟ تلك الأسئلة هي ما تحاول هذه الدراسة الإجابة عنه بعون الله تعالى وتوفيقه.

منهجية البحث

أودّ أن أشير إلى أنّ هذه الدراسة هي موضوعية تفسيرية، وليست بيانية بلاغية، فذاك شأن يطول ويخرج بالبحث عن حجمه الطبيعي! ولا يصلح لهذا البحث إلا منهج الاستقراء التام في نصوص القرن كلها، وسيعمد إلى الآيات كلها التي ورد فيها هذا الاقتران، وسيقوم بدراسته دراسة موضوعية تجيب عن الأسئلة التي تم طرحها في مشكلة البحث.

وسترد ضمن المباحث الآتية:

- المبحث الأول: في معنى "الحكيم" و"العليم"، واقترانهما في القرآن الكريم.
- المبحث الثاني: في تقديم اسمه "الحكيم" على اسمه "العليم" وسياقه.
- المبحث الثالث: في تقديم اسمه "العليم" على اسمه "الحكيم" وسياقه.
- الخاتمة: وتشتمل على نتائج البحث.

المبحث الأول

في معنى "الحكيم" و"العليم"، وورودهما مقترنين في القرآن الكريم

المطلب الأول: في معنى الحكيم والعليم

الحكمة كما قال العلماء: وضع كل شيء في موضعه، أو **هي إصابة الحقيقة لكل شيء ووضعه موضعه**[1]. وذكر الزجاج: أنّ الحكيم بمعنى المحكم والله تعالى هو المحكم للأشياء المتقن لها [2]. فيتحصل من هذا أنّ الحكمة هي إصابة الحقيقة وهي الإتقان. **وثمة معنى ثالث لها "هو أنها مأخوذة من الحكم وفصل القضاء وأنها الإصابة"[3].**

(1) أبو منصور الماتريدي كتاب التوحيد، تحقيق فتح الله خليف، (دار الجامعات المصرية – الإسكندرية) ص 114، 200.

(2) أبو إسحق إبراهيم بن محمد الزجاج ، تفسير أسماء الله الحسنى، تحقيق: أحمد الدقاق (دمشق: دار الثقافة العربية، 1974) ص 52.

(3) محمد بن جرير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. تحقيق: أحمد شاكر (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1420هـ)، ج 5 ص 579.

كذلك، فإنّ الحِكمَةَ "تطلق في الأصل على قطعة الحديد التي توضع في فم الفرس لتلجمه حتى يمكن للراكب أن يتحكم فيه... وكأن إطلاق صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنّه جلّ جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هدى، ودون دراية"(1).

أما العليم والعالم من أسماء الله الحسنى فهما مشتقان من العلم، والعلم هو إدراك الشيء على ما هو به (2). وذكر العلماء في معنى "عليم" أقوالاً متقاربة، فيرى الخطابي أنّ "العليم هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق، وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم"(3) وقال ابن الأثير: "هو العالم المُحيطُ عِلْمُه بجميع الأشْياء ظاهِرها وباطِنها دَقِيقِها وجَلِيلِها على أتَمّ الإمْكان(4). وذكر الزجاج أنّ العليم والعالم بمعنى واحد، إلا أنّ "عليم" فيه صفة زائدة على ما في "العالم"(5). قال ابن حجر: "هذا بالنظر إلى أصل المعنى، وإلا فصيغة فعيل من صيغ المبالغة فمعناها زائد على معنى الفاعل. وقد ترد صيغة فعيل بمعنى الصفة المشبهة، وفيها أيضاً زيادة لدلالتها على الثبوت بخلاف مجرد الفاعل، فإنه يدل على الحدوث"(6). كذلك، فإنّ "العالم" لم يأت في القرآن إلا مضافا بخلاف اسمه العليم.

المطلب الثاني: وروده في القرآن الكريم

أكثر اقتران ورد فيه العلم مقترناً بغيره من أسماء الله الحسنى هو هذا الاقتران، إذ اقترن باسمه الحكيم في ست وثلاثين آية، معظمها مدني.

ولم يرد "الحكيم" منفرداً اسماً له جلّ جلاله، ولكنه جاء وصفاً مقترنا بالذكر، والكتاب، والقرآن، والأمر. وهو في المحصلة صفة كلام الله تعالى وأمره. أما العليم فقد ورد منفرداً في

آيات كثيرة، مثل قوله:: وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم"(7). قوله: "وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ"(8) ورد في اثنتي عشرة آية قوله تعالى: "عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ"(9).

(1) محمد متولي الشعراوي. خواطري حول القرآن، ج 1، ص 250.
(2) علي بن محمد الجرجاني. التعاريف، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1405هـ) ص 66.
(3) أبو سليمان، حمد بن محمد الخطابي. شأن الدعاء، تحقيق: أحمد الدقاق، (بيروت: دار الثقافة العربية، 1412هـ) ص 57.
(4) المبارك بن محمد، ابن الأثير. النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزاوي و محمود الطناحي (بيروت: المكتبة العلمية، 1399هـ) ج 3، ص 560.
(5) انظر: الزجاج. تفسير أسماء الله الحسنى، ص 39-40.
(6) أحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني. فتح الباري شرح صحيح البخاري. (بيروت: دار المعرفة، 1379) ج 8، ص 155.
(7) في ثلاث آيات في: سورة البقرة: 29. وسورة الأنعام: 101، وسورة الحديد: 3.
(8) ورد في أربع آيات في: سورة البقرة: 95، 246، وسورة التوبة 47، وسورة الجمعة7.
(9) ورد في اثنتي عشرة آية، هي: آل عمران 119، 154، المائدة 7، الأنفال 43، هود 5، لقمان 23، فاطر38، الزمر 7، الشورى24، الحديد 6، التغابن 4، الملك 13.

وبينما نجد اسمه العليم قد اقترن بأكثر من عشرة أسماء من أسماء الله الحسنى نجد اسمه "الحكيم" قد اقترن بسبعة أسماء فقط من أسماء الله الحسنى، هي: العزيز، والخبير، والواسع، والعلي، والتواب، والحميد، إضافة إلى اسمه العليم.

وورد هذا الاقتران في سياق جملة من القضايا العقدية والتشريعية والسنن الإلهية، وقضايا أخرى، ويوحي هذا العدد الكبير من الآيات التي اقترن فيها هذان الاسمان الجليلان بأن تلك القضايا قد قامت على العلم والحكمة واستندت إليهما، وأن التشريع الإلهي قد قام على الإبداع والإتقان، لما له من أثر وأهمية في تنظيم الحياة الإنسانية واستقرارها. هذا، فضلاً عن القضايا التي تقف بالإنسان عند حدود الابتلاء والامتحان؛ ليصوغه القرآن صياغة إيمانية متقنة. وكلها تتطلب وقفات طويلة من التدبر والوعي، ليُعلمَ مبلغ الإحكام والإبداع في تلك الموضوعات. قال الرازي: إنّ في كل موضع من القرآن ورد فيه لفظ الحكيم معطوفاً على العليم كان المراد من الحكيم كونه **محكماً في أفعاله**، فالإحكام والإعلام عائدان إلى كيفية الفعل، والله أعلم[1]. وقال في اللباب: "إذا ذكر "الحَكِيم" بعد قوله: "العَلِيم" فالمرادَ بالحَكيم: **أنه العَالِمُ بِعَوَاقِبِ الأمُور**. وقالت المُعْتَزِلَةُ: المُرادُ بالحَكِيم: هو الَّذِي يضع الأسْبَاب للمصَالِح[2]. ولكل قول من هذه الأقوال وجهته المعقولة، فكون أفعاله سبحانه في غاية الإحكام والإتقان لا ينافي كونه عالماً بعواقب الأمور، ولأنّه عالم بها وضع تشريعاً محكماً، وبنى هذا التشريع على ما يحقّق مصالح العباد في دنياهم وأخراهم.

وعند مقارنة هذا الاقتران مع الاقترانات الأخرى التي ارتبطت باسمه "العليم" يظهر أنّ بعض تلك الاقترانات كان يتأخر فيها اسم الله "العليم" على غيره من الأسماء، فقد يتأخر مطلقاً وهو الأغلب، كما في: الفتاح العليم، السميع العليم، الواسع العليم، العزيز العليم... وقد يتقدّم مطلقاً كما في: العليم الخبير، العليم القدير. أما هذا الاقتران فيختلف عن كل الاقترانات الأخرى من حيث إنه كان يتقدم مرّة ويتأخر أخرى. فقد تقدّم اسمه العليم على الحكيم في الأعم الأغلب**.** ولم يتأخر إلا في سبع آيات فقط. وتفصيل ذلك:

1. تقدّم اسمه العليم على اسمه الحكيم في تسع وعشرين آية[3]، وهي آيات معظمها مدني، وليس فيها إلا ثلاث آيات مكيات هي التي في سورة يوسف.
2. بينما تقدّم اسمه الحكيم على العليم في سبع آيات فقط [4]، وكلها آيات مكية.

(1) محمد بن عمر الرازي، مفاتيح الغيب،(بيروت: دار الكتب العلمية، 1421هـ) ج 10، ص 189.

(2) أبو حفص عمر بن على، ابن عادل الدمشقى. اللباب في علوم الكتاب. تحقيق: عادل عبد الموجود وزميله (بيروت: دار الكتب العلمية. 1419هـ) ج 6، ص 616.

(3) هي في: سورة البقرة 32، وسورة النساء 11، 17، 24، 26، 92، 104، 111، 170، وسورة الأنفال 71، وسورة التوبة 15، 28، 60، 97، 106، 110، وسورة يوسف 6، 83، 100، وسورة الحج 52، وسورة النور 18، 58، 59، وسورة الأحزاب 1، وسورة الفتح 4، وسورة الحجرات 8، وسورة الممتحنة 10، وسورة التحريم 2، وسورة الإنسان 30.

(4) هي في: سورة الأنعام 83، 128، 139، وسورة الحجر 25، وسورة النمل 6، وسورة الزخرف 84، وسورة الذاريات 30.

3. وقع هذا الاقتران في ثماني عشرة سورة، منها ست سور مكية، واثنتا عشرة سورة مدنية
4. عدد آيات الاقتران في السور المكية عشر آيات، وفي السور المدنية ست وعشرون آية.
5. أكثر سورة ورد فيها هذا الاقتران هي سورة النساء ذات الصبغة التشريعية، فقد ورد فيها ثمانية اقترانات، ثم سورة التوبة التي ورد فيها ست مرات.

وستحاول هذه الدراسة الوقوف مع سياقات الآيات التي ورد فيها هذا الاقتران، سواء التي تقدّم فيها اسمه الحكيم، أو التي تقدم فيها اسمه العليم.

المبحث الثاني: في تقديم اسمه "الحكيم" على اسمه "العليم" وسياقه

تقدّم في سبع آيات بينات اسم الله "الحكيم" على اسمه "العليم" منسجماً ومتوافقاً مع سائر الاقترانات الأخرى التي ارتبط فيه اسمه "العليم" بغيره من أسماء الله الحسنى. وورد ذلك في سياق قرآني مكي متنوع، وكونه مكياً يتطلب من المخاطبين الذين كانوا يفتقرون إلى فهم حكمة تدبير الخالق الجليل سبحانه وعياً أكثر وإدراكاً أكبر للوقوف على وجه الحكمة في تلك الآيات. وقد بين ابن قيم الجوزية رحمه الله أنّ صفتي الحكمة والعلم هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته. والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام. والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب [(1)].

وقد اقترن هذا الاسمان في سياقات ثلاثة، هي:

1. إثبات التوحيد ونفي ما يتوهّمه العبد من معتقدات بحقّه سبحانه

توحيد الله تعالى من مقاصد القرآن العظمى، بل هو أعظم مقصد لخلق الإنسان، ونزول القرآن، وقد ورد في ثلاث آيات كريمة، هي: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾(الزخرف) فقد وقع هذا الاقتران الذي يفيد القصر مفنّداً توّهم استبعاد أن يكون الله الواحد هو المعبود بحق في السماء والأرض، وتوهّم تعدّد المعبودات من وثن إلى صنم إلى شمس أو قمر.. أو شجر أو حجر. فليس إلا الله الواحد المعبود بحقّ في السماء والأرض، وبهذا الخبر الذي انتقل إلى وعي الإنسان تتجلى الحكمة في توحيد مشاعر الإنسان وكيانه حفظاً له من التشتّت أو التقوقع، ووقاية له من وهم الخرافة والخيال، وأماناً له من الانحراف أو الانهيار! بل إنّ هذا يمثل الوجهة الصحيحة والطريق المستقيم لكل نشاط يقوم به الإنسان على وجه الأرض.

(1) محمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية. الرسالة التبوكية. القاهرة: مطبعة المدني، بلا تاريخ. ص 69.

وهو الطريق الآمن للنجاة في الدنيا والآخرة. وقد وقع الوصل بين الجمل لاتفاقها في الخبرية عن الله سبحانه. فهو معبود في السماء، ومعبود في الأرض، وهو الحكيم العليم.

والاقتران كما ذهب بعض المفسرين وارد في سياق تعظيم الله وتفرّده بالإلهية، قال الماوردي: "وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ" يحتمل وجهين: أحدهما: أنه يذكر ذلك صفة لتعظيمه. الثاني: أنه يذكره تعليلاً لإلهيته؛ لأنه حكيم عليم، وليس في الأصنام حكيم عليم"[(1)]. وللأصنام أقل شأناً من أن تكون في مقام مقارنة صفاتها بصفات الله تعالى!

ورأى البقاعي أنّ السياق وارد لإبطال الشرك على وجه يفهمه كل أحد، فمن صفات الإله الحكمة التي تقتضي أن يضع الأمور في محلها بحيث لا يتطرق إليها فساد، ولا يفعل ذلك إلا إذا كان بالغ الحكمة وبالغ العلم، ولو وسّع المشركون أفكارهم وأطالوا أنظارهم لأدركوا أنه ليس كمثله شيء في ذاته ولا صفة من صفاته ليقاس به، وكل من ادّعى أن له شريكا لا يقدر أن يدعي له ما وصف به من الإجماع على ألوهيته من كمال علمه وحكمه[(2)].

ووضح ابن عاشور ذلك بقوله: "بعد أنّ وصف الله بالتفرّد بالإلهية أتبع بوصفه بـ "الحكيم العليم" تدقيقاً للدليل الذي في قوله: "وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله" حيث دلّ على نفي إلهية غيره في السماء والأرض، واختصاصه بالإلهية فيهما؛ لما في صيغة القصر من إثبات الوصف له، ونفيه عمن سواه، فكان قوله: "وهو الحكيم العليم" تتميماً للدليل واستدلالاً عليه؛ ولذلك سميناه تدقيقاً؛ إذ التدقيق في الاصطلاح هو ذكر الشيء بدليل دليله، وأما التحقيق فذكر الشيء بدليله؛ لأنّ الموصوف بتمام الحكمة وكمال العلم مستغن عما سواه فلا يحتاج إلى ولد ولا إلى بنت ولا إلى شريك"[(3)].

وفي اقتران آخر يرد قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الذاريات:30) مفنّداً استبعاد زوج إبراهيم عليه السلام أن ترزق بولد، فقد صكّت وجهها وقالت عجوز عقيم! متعجبة ومستبعدة أن تكون قابلة لأن تحمل وتلد في هذا السنّ المتأخر من حياتها، **ومبيّناً أنّ ذلك غير مستبعد بالنسبة إلى الحكمة والعلم الإلهيين. إنّ طاقة البشر في استيعاب شؤون الحكمة الإلهية في تدبير أحوال الخلق محدودة، لا تدرك للوهلة الأولى، وقد اقترنت بالعلم للدلالة على أنّ الحكمة وقعت في موقعها المناسب، وأنّ هذه الأفعال لا تصدر إلا عن كمال علم وحكمة، فوصف الله تعالى بأنه حكيم عليم تعليل لأمر الله تعالى بأن ترزق بمولود اسمه إسحق ليكون وريث النبوّة. وفي ذلك آية خارقة تدلّل على كمال الحكمة الإلهية في استمرار كلمة الحقّ ونور النبوّة على الأرض.**

---

(1) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي. النكت والعيون. تحقيق: السيد بن عبد المقصود، (بيروت: دار الكتب العلمية، بلا تاريخ) ج5، ص 241.

(2) انظر: إبراهيم بن عمر البقاعي. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. (بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ)، ج 7، ص 57.

(3) محمد الطاهر ابن عاشور. تفسير التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون، 1997) ج 25، ص 268.

وقد سمّى بعضهم هذا السياق سياق إجراء المعجزات: "وذلك أنّ مضمون الألوهية في مقام التوحيد قهر وقوّة وغلبة، يقابلها من العباد طاعة وعبادة وخضوع، فتقديم الحكمة في هذا المقام - والله أعلم - ليعلم أنّ ألوهيته عزّ وجل - السارية على من في السموات والأرض مسارها الحكمة. ولعلّه لمّا كان العلم الشامل هو رافد الحكمة، وعلى أساسه تنزل الأشياء منازلها، وتوضع الأمور في مواضعها التي بها تستقيم تبع اسم "الحكيم" باسم "العليم" [1].

كذلك، اقترن هذان الاسمان في سياق تنزيه الله في تشريعه عن العبث، واستبعاد أن يكون الله تعالى قد شرع لهم ما هو مناف للحكمة، في قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾(الأنعام:139) فقد ادّعى هؤلاء سلطة التشريع، وافتروا على الله بزعمهم أنّه سبحانه قد جعل ما في بطون الأنعام من أجنة خالص أكله للذكور منهم دون الإناث، وإن خرجت ميتة كانوا فيه شركاء النساء والرجال جميعاً. وإيراد الفاصلة على هذا النحو التعليلي لتنفي أن يكون الحكيم العليم قد شرع لهم ما هو مناف للحكمة، فمعتقدهم في ذلك مجرد أوهام توهّموها، وخرافات اعتقدوها ما أنزل الله بها من سلطان! وتشريعهم هذا مبني على إيثار الذكور على الإناث في المحاسن، والمساواة بين الجنسين ليس إلا في المساوئ.

ورأى بعض المفسرين أنّ الفاصلة تعليل للجزاء، قال أبو السعود: "تعليل للوعد بالجزاء؛ فإنّ الحكيم العليم بما صدر عنهم لا يكاد يترك جزاءهم الذي هو من مقتضيات الحكمة"[2] وكذلك ذهب جمع من المفسرين -كابن عاشور- إلى أنّ هذا الاقتران وقع تعليلاً لكون الجزاء موافقا لجرم وصفهم. وتؤذن "إنّ" بالربط والتعليل، وتغني غناء الفاء، فالحكيم يضع الأشياء مواضعها، والعليم يطلع على أفعال المجزيين، فلا يضيع منها ما يستحق الجزاء"[3].

كذلك، عدّ السامرائي السياق وارداً في الجزاء، وبنى عليه أنّ الحكمة تتقدّم على العلم في سياق الجزاء[4].

2. إظهار دلائل الحق والهداية

وورد ذلك في آيتين، تبتدئان برسالة أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وتختتمان برسالة سيّد المرسلين محمّد صلى الله عليه وآله سلم، لكن حجة إبراهيم كانت على قومه، وآية محمد كانت على الخلق أجمعين إلى يوم الدين، وبيان ذلك:

(1) عبد العزيز ناصر الجليل، ولله الأسماء الحسنى، ص 375. موقع المؤلف:http://islamlight.net/aljiliyl
(2) محمد بن محمد العمادي، أبو السعود. إرشاد العقل السليم، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، بلا تاريخ) ج 3، ص 191.
(3) ابن عاشور. التحرير والتنوير. ج 8 ، ص 112.
(4) فاضل صالح السامرائي، لمسات بيانية، ص 16.

أنّ قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ (الأنعام) قد أشار إلى تلك الحجة البيّنة التي ضمنت لهم الخروج من ظلمات الكفر إلى نور الهداية. وتصدق تلك الحجّة على كلّ دلائل الحق سواء أكانت الوحدانية أم النبوّة، أم الهداية إلى طريق الإيمان... إنها الحجة التي قصمت الباطل. قال في المنار:" لقد حاجهم ببيان بطلان عبادة الأصنام، وربوبية الكواكب، وإثبات وحدانية الله تعالى، ووجوب عبادته وحده"[(1)] وبتلك الحجّة التي تهدي إلى الحق يرفع الله درجات من يقبل على الهداية بقلب سليم، وبتلك الفاصلة التي قرنت بين الحكمة والعلم ختمت الآية. وسرّ تقديم الحكمة ملاحظ فيه نفي العبث عن هذا الخلق، فلم يخلق الله الكون عبثا، ولن يترك الخلق سدى، بل نوّر قلوبهم وعقولهم بآياته البيّنة، ليحيى من حيّ عن بينة ويهلك من هلك عن بيّنة، وهذا أمر تستدعيه الحكمة أولاً، ولا تكون الحكمة إلا مبنية على علم الله المطلق بالخلق.

وعلى الصعيد المنهجي فإنّ الأمور كلها تبنى على منطق الدليل، ولا تسير على غير ذلك، فهو وسيلة الإقناع، وهو الأسلوب الفاعل في النفس والحافز لها إلى التفكير والتغيير، فالتغيير بلا إقناع أو تأثير للحجة ميؤوس منه؛ ولذلك كان وجوده منتهى الحكمة.

وقد يلحظ في تقديم الحكمة معنى آخر، وهو أنّ قانون العدالة الإلهية يقتضي رفع الدرجات لمن تفاعل مع تلك الحجة، فوقف عليها وآمن بها، ليتسابق في ذلك المتسابقون، وليتنافس فيه المتنافسون. ولولا ذلك ما تمايز الناس في الدرجات والفضائل والمكرمات. فالحكمة تقتضي أن تقع أولاً. ويرى ابن عاشور أنّ جملة "إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ" مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأنّ قوله: "نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ" يثير سؤالا، يقول: لماذا يرفع بعض الناس دون بعض، فأجيب بأن الله يعلم مستحق ذلك ومقدار استحقاقه ويخلق ذلك على حسب تعلق علمه. فحكيم بمعنى محكم، أي: متقن للخلق والتقدير. وقدم "حكيم" على "عليم" لأنّ هذا التفضيل مظهر للحكمة ثم عقب بـ "عليم" ليشير إلى أنّ ذلك الإحكام جار على وفق العلم"[(2)].

أما الآية الأخرى فهي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (النمل:6) وهي واردة في سياق مقارب للآية السابقة؛ فقد تقدّمها حديث عن كون القرآن هدى وبشرى للمؤمنين، ثم ذكر أوصافهم وذكر بعدها الذين لا يؤمنون بالآخرة، وأنّ لهم سوء العذاب، وهم في الآخرة هم الأخسرون؛ ليدلل بعد ذلك على أنّ هذا القرآن يمثل الهداية التي يحتاجها الخلق، حيث قضى الحكيم سبحانه أن يكون الرسالة الخاتمة في آخر عهد للأرض بالرسالات الإلهية. وأن يكون القرآن هو المعجزة الكبرى، وهو نظام الحياة ودستور الأمة، والحجة البالغة على الخلق أجمعين. جاء هذا في سياق انصراف كثير من الناس عن هداية الله تعالى.

(1) محمد رشيد رضا. تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار (مصر: الهيئة المصرية للكتاب، 1990) ج7، ص 478.

(2) ابن عاشور. التحرير والتنوير، ج 7، ص 336.

وبسبب أنّ الهداية هي أهم غايات سعي الإنسان ومنتهى أمله، وبسبب أن معالم الهداية الحق لم تكن قائمة قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم اقتضت حكمة الله تعالى أن يوحي هذا القرآن فيتلقاه النبيّ الخاتم، ليكون كتاب الهداية الخالد الهادي للحق إلى يوم الدين، لذلك تقدّمت الحكمة على العلم في هذا السياق.

وقد يكون في فعل التلقي التدريجي لهذا القرآن باعث يستلزم الحكمة والعلم، فالإنسان غير قادر على التلقي الكلي دفعة واحدة،﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الفرقان) وهو غير قادر على الالتزام الكلي دفعة واحدة، فكان سبحانه حكيماً عليماً إذ نزله تنزيلاً، ورتله ترتيلاً!

3. إثبات الحشر

ورد الاسمان الجليلان: الحكيم والعليم مقترنين في آيتين كريمتين تتحدثان عن الحشر، الأولى وردت في قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (الأنعام). ووردت الفاصلة على هذا النحو لأنّ ثمة مشكلة إنسانية قائمة تتعلق بتصورات خرافية، واعتقادات وهمية؛ فاعتقاد الجنّ والإنس أنّ بعضهم يملك نفع بعض، اعتقاد لم يقم على أساس، وينبغي أن يتجلى بطلانه، ويظهر ذلك البطلان حين يصوّر موقفهم عند حشرهم للحساب والعقاب. ولمّا كان الحشر هو السبيل إلى إحقاق الحقّ وإبطال الباطل؛ ولما كان الحشر يمثل نهاية الزور والبهتان، والإفك والعصيان، كان تقديم الحكمة على العلم – في فاصلة الآية- مناسباً تمام المناسبة، فاقتضى السياق وقوع هذا الاقتران على هذا النحو البليغ، فالحشر ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، ولأنّه عقيدة تربي النفوس على الاستقامة جاء التعبير بعنوان الربوبية "إنّ ربك".وتأكد وقوع هذا الاقتران على هذا النحو في الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ (الحجر:25) قال أبو السعود: "لعلّ تقديم صفة الحكمة للإيذان باقتضائها للحشر والجزاء" [(1)]. فلولا الحشر لفعل من شاء ما شاء، ولأهلك البشر بعضهم بعضا، فكان الحشر والحساب صمام أمان لحياة الإنسان!

وتتجلى الحكمة في انتفاء العبث عن فعل الله تعالى في حشر الخلائق للحساب والعقاب، ولولا الحشر لانتفى النظام والانتظام من حياة الإنسان كلها؛ فقضية البعث والحشر تشكل صمام الأمان لحياة الإنسان.

(1) أبو السعود. إرشاد العقل السليم، ج5، ص 73.

المبحث الثالث: في تقديم اسم الله تعالى "العليم" على اسمه "الحكيم"

حاول الإمام الزركشي أن يبين بكلام جامع متى يمكن أن يتقدّم "العليم" على "الحكيم" في القرآن الكريم، فقال: "وتقديم العليم على الحكيم؛ لأنّ الإتقان ناشئ عن العلم، وكذا أكثر ما في القرآن من تقديم وصف العلم على الحكمة" (1). ويصدق هذا الكلام على كل آيات التشريع المتقن المبني على العلم المطلق، ويصدق كذلك على قضايا عقدية وأخرى تتعلق بالمنافقين، وهو ما سيظهر في هذه الدراسة.

أولاً: في رعاية مقام نبوّة محمّد بخاصّة والأنبياء بعامة

لا شكّ في أنّ مقام النبوّة هو أرفع المقامات عند الله تعالى، وخصوصاً نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم بوصفها النبوّة الخاتمة، فقد حظيت بعناية خاصة عنده سبحانه من حيث وجوب الإيمان به صلى الله عليه وسلم وتوقيره وتوجيهه بما يلزم، وكذلك شأن السلسلة المباركة من أنبياء الله تعالى. واقترن الاسمان الجليلان "العليم والحكيم" في سياقات عديدة تتعلق بهذا الشأن هي على النحو الآتي:

أ. حثّ الناس جميعاً على الإيمان بالرسول الخاتم،

فقد أولى عناية فائقة لشأن الإيمان به صلى الله عليه وسلم، وبنى على ذلك حكماً فاصلاً هو أنّ الكفر به لن يضرّ الله شيئاً، فكل شيء منقاد إليه، وكل ما في السموات والأرض ملك له سبحانه، فهو غني عن العالمين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾(النساء:170) وسرّ الاقتران هنا أنّ عجز البشر لا يمكنهم من إيجاد تشريع يصلح شؤون حياتهم، ويحقّق لهم السعادة، فذلك أمر لا يمكن الوصول إليه إلا بالنبوّة، والكفر بها لا يزيد حياة البشر إلا جحيماً، ولذلك أرسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم ليختم به النبّوات، وليسعد بنبوته البشر، ويصلح به شؤون الخلق، وهو مما اقتضاه علم الله تعالى وحكمته. وكأنّ الخطاب يتضمن تهديداً بالغ الخطورة، وهو أنّ المكذبين بالنبوّة خارجون على نظام الخلق، متمرّدون على قانون الفطرة، ويستحقون أشدّ العقوبات، لكنّ تركهم وإمهالهم بلا عقاب إنما هو إمهال لهم ليتفكروا فيتوبوا إلى الله وينصرفوا عن الكفر والضلالة إلى الإيمان والهداية. قال أبو زهرة: "في ختام هذا النص الكريم وصف الله الدائم بالعلم المحيط الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وبالحكمة وحسن التدبير والإبداع في ملكوت السماوات والأرض، إذ يسير الكون بنظام محكم التقدير والتدبير، وبنواميس وأسرار كونية لا يعلمها إلا العليم الخبير الذي خلق كل شيء فقدره وأحسن تقديره، وأنه كان من مقتضى علمه ألا يخفي ضلال الضالين، ولا هداية المهتدين، وكان من مقتضى حكمته، أن يجزي بالكفر عذاباً،

(1) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي. البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. (بيروت: دار المعرفة، 1957) ج 3، ص 247.

وبالإيمان نعيماً، وأن يجعل من عباده الشكور المهتدي، ومنهم من ضلّ وغوى" (1). قال الرازي: فان قيل لم قال كانَ عَلِيماً حَكِيماً مع أنه الآن كذلك. قلنا: قال الخليل: الخبر عن الله بهذه الألفاظ كالخبر بالحال والاستقبال، لأنه تعالى منزّه عن الدخول تحت الزمان. وقال سيبويه: القوم لما شاهدوا علماً وحكمة وفضلا وإحساناً تعجبوا، فقيل لهم: إن الله كان كذلك، ولم يزل موصوفاً بهذه الصفات(2).

ب. وجوب توقير النبيّ والتزام هديه وعدم الاقتراح عليه من غير مشورة ليتبعهم

ففي ذلك شقاؤهم وهلاكهم. لقد تفضل الله عليهم بالإيمان فزيّنه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (الحجرات:8). وتفضّل الله عليهم بتحبيب الإيمان وتزيينه في قلوبهم من أعظم نعم الله عليهم، - وهو دعاء تلهج به ألسنة المؤمنين الصادقين- فالناس لن يرتقوا بعقولهم إلى معرفة ما يصلحهم وما يفسدهم، فالله وحده من يعلم ذلك، وهو الحكيم فيما شرع لهم من مكارم الأخلاق ومعالي الفضائل. وتظهر قيمة النبوة وعظيم شأنها، وأنّها منّة إلهية، فهي تتلقى عن الله تعالى، أما العقل فهو يتلقى من وحي رغبات النفس وميولها وأهوائها وهو يجنح إلى ذلك، ولا كذلك النبوّة. ومن حكمة الله تعالى أن شرع للناس –وهو أعلم بهم- ما يصلحهم، ولن يرقى الإنسان إلى الرشد إلا بنور النبوّة ؛ فتوقيرها وتعظيم شأنها من الفروض العظمى.

ت. لما كان صراع الحقّ مع الباطل لا ينقطع،

وكانت النبوّة تمثل الحق أكمل تمثيل، أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالتقوى، وحُذّر من طاعة الكافرين والمنافقين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ (الأحزاب:1)، على الرغم من عدم إمكانية طاعته لهم، فهو الذي يتلقى عن الله الوحي والتشريع، فالخطاب –إذن- هو خطاب لأمته، وسبب هذا النهي أنّ المؤثرات الخارجية المتمثلة في ضغوط الكافرين، والمؤثرات الداخلية المتمثلة في ضغوط المنافقين تهدف إلى جرّ المؤمن إلى اتباع الهوى. فوقع أمر ونهي يواجهان تلك المؤثرات، وهما: الأمر بالتقوى التي تمثل صلاح الباطن، وتدلل على قوّة الصلة بالله تعالى والقرب منه سبحانه. والنهي عن طاعتهم، وهما السبيل الواقي من شرورهم وتأثيرهم، والاقتران بين الأمر بتقوى الله، والنهي عن طاعتهم لما أنّ التقوى هي الباعث والدافع إلى عدم طاعتهم، وبدون التقوى يبقى المسلم ضعيفاً أمام تأثيرهم، ووقوع هذا الاقتران بين العلم والحكيمة يؤكد أنّ حقيقة التقوى لا يعلم بها إلا من أحاط علماً بخفايا

(1) محمد أبو زهرة. زهرة التفاسير، (بيروت: دار الفكر العربي، بلا تاريخ) ج 4، ص 1977.
(2) الرازي. مفاتيح الغيب، ج 9، ص 177.

النفوس، وخطرات القلوب وأحوالها، وبذلك تحكم الصلة بين العبد وربّه، حين يستشعر العبد مراقبة الله تعالى له فيكون الله هو مصدر التلقي والتوجيه. وأما الحكيم فوقع مناسبا للنهي عن طاعتهم، مما يحفظ استقلالية الأمة وهيبتها وشخصيتها. وما أفقد الأمة مكانتها اليوم إلا بسبب طاعة أولئك الكافرين والمنافقين.

ث. التحذير من خيانة النبوّة،

وقع الاقتران كذلك في موضوع يتصل بالنبوّة، وفي قضية تتعلق بأسرى بدر، وما اشترط عليهم من الفدية لفك أسرهم، فإن صدقوا الله أعطاهم خيراً مما أخذ منهم، وإن قصدوا الخيانة فلهم قصب السبق فيها، قال تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (الأنفال) ولأنّ الخيانة عمل باطن، فلا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فلن تخفى خيانتهم على الله فهو تهديد لهم، وتحذير من مغبّة العودة للخيانة. وأما اسمه الحكيم فمناسبته ظاهرة من حيث إنّه سبحانه أوقع بهم أسرى يوم بدر، وسيوقع بهم مرّة أخرى، فهم في قبضته، وحكيم في كونه ناصر نبيه وناصر دينه، وهذا ممّا يقوّي عزائم المؤمنين، ويشدّ من أزرهم. فالاقتران واقع للكشف عن حكمة الله فيهم حين أجرى فيهم حكمه الحكيم فقبل أن يفتدوا أنفسهم، إذ منحهم فرصة التفكير الجادّ في موقفهم من هذا الدين وقد رأوا ما يدفعهم إلى الإيمان من حسن المعاملة وقوّة البأس والشدّة في المسلمين وقوّة حبهم وغيرتهم على دين الله تعالى. وهذا يظهر عظمة هذا الدين وسماحته في التعامل مع الأسرى. وتتجلى الحكمة كذلك في أخذ المسلمين الفدية منهم، مما يعني امتلاكهم سبباً من أسباب القوّة، وهو المال الذي يعينهم في الإعداد والاستعداد. لقد حلّ قضية الأسرى **بحكم تعوده آثاره الإيجابية على الجميع بلا استثناء**، ويتجلى العلم والحكمة هنا في هذا الحلّ لمشكلة إنسانية، وضعوا لها اليوم قانوناً دولياً.

فالملاحظ في إيراد هذا الاقتران أنه يجمع شتات القضايا ويبين فيها حكم الله على صورة يرضي الجميع بلا استثناء، وهنا يبرز العلم، وتبرز الحكمة أيضاً.

ج. وورد هذا الاقتران -كذلك- في سياق آخر متصل بشأن النبوّة،

وما يساورها من هموم وظنون إزاء انتصار دين الله في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج:52) وفي معنى الآية قال الشعراوي: "كل نبي أو رسول يتمنى، يعني: يودّ أن ويحب ويرغب أن ينتشر دينه ويطبق منهجه، ويؤمن به جميع قومه، لكن هيهات أن يتركه الشيطان وما أحب، بل لا بدّ أن يقف له بطريق دعوته؛ ليصدّ الناس عنه، ويصرفهم عن دعوته ومنهجه، لكن في النهاية ينصر الله رسله وأنبياءه، وينسخ عقبات الشيطان التي ألقاها في

طريق الدعوة، ثم يحكم الله آياته، ويؤكدها ويظهرها، فتصير محكمة، لا ينكرها أحد"[1]. فالرسول أو النبيّ بشر، يراوده الهمّ، ويعتريه الغمّ، ويساوره الظنّ، كيف وقد خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ (فاطر)، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ (الكهف) فإذا كان يغتمّ لأجل الكافرين، أفلا يغتم لهذا الدين وتساوره الهموم إزاء انتصاره والمؤمنين؟ إنّ تلك الظنون من وساوس الشيطان التي تبدّدها آيات الله تعالى ودلائل قدرته ووحدانيته في الانتصار لدينه في الأرض، فكم راودت الرسول صلى الله عليه وسلم من هموم يوم بدر، لكنها بدّدتها آيات الله بنصر المؤمنين وهزيمة المشركين، وتحقّق هذا يوم الأحزاب، وتحقق هذا في مواطن كثيرة، وهذا معنى قوله: "ثم يحكم الله آياته". ووقع الاقتران بقوله "والله عليم حكيم" فما يدور في نفس النبيّ أو الرسول يعلمه الله تعالى لا يخفى عليه منه شيء، ومن شأن هذا أن يطمئن الرسول أو النبيّ، فعلم الله مطلق يقتضي إحاطته بما يتردد في الصدور، وبما تخفيه النفوس. فمناسبة إيراد "العلم" ظاهرة هنا، وأما مناسبة ايراد الحكمة فقد جعل الله انتصار الدين الإلهي أو الحقّ لا يكون إلا بجهد المؤمنين، هذه سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل، أن لا ينتصر الحق إلا إذا قام أهله من خلفه يؤثرونه على أنفسهم، مع أنّ الله تعالى قادر على أن ينصر دينه، وأن يبطل كيد الكافرين، لكنه سبحانه جعل ذلك مرهوناً بعزيمة المؤمنين وصبرهم على العمل للحق، ليعلموا كيف يحافظون عليه، وإلا لكان التخلّي عنه سهلاً، ولكان شيئاً رخيصاً في حياتهم. وفيه تمحيص وابتلاء للمؤمنين ليكشف به عن الإيمان الحق، ويميزه عن الإيمان المدّعى، أعني: إيمان المنافقين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فيه ابتلاء للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم حيث قال في الآية بعدها: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ (الحج) فهؤلاء يتوهمون أنّ الله خاذل دينه، وأنّ هذا الدين هو سبب فقر المسلمين، وسبب ما بهم من جهل وتخلف... وهذه هي الفتنة، فهو يمهلهم لأجل ذلك، وقد رأوا الآيات الدالة على انتصار هذا الدين. فهل يتعظون فيؤمنون؟

ح. وفي سياق متصل بشأن النبوّة،

ومتعلق بالاصطفاء والاجتباء يرد هذا الاقتران موضّحاً فضل الله وإنعامه على تلك السلسلة الزكية الطاهرة من الأنبياء: إبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، فالله تعالى لا يجعل رسالته إلا في أحسن الناس وأزكاهم باطناً وظاهراً، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ

---

(1) انظر: محمد متولي الشعراوي، خواطري حول القرآن، ج 16، ص 9879 وانظر: محمد أبا زهرة، زهرة التفاسير، ج 1، ص 407.

﴿رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (يوسف:6) فوصف العلم مناسب لاصطفاء من يصلح لهذه النبوّة ممن لا يصلح، ومناسب لحاجة الخلق حيث لا يصلح حالهم إلا بها. أما وصف الحكمة فهو مناسب لبعث النبيّ في الوقت المناسب والمكان المناسب. وأشار إلى عنوان الربوبية هنا ليؤكد مقصد النبوة، وهو التربية، قال الرازي: "فقوله: "عَلِيمٌ" إشارة إلى قوله: "الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ" (الأنعام: 124) وقوله: "حَكِيمٌ" إشارة إلى أن الله تعالى مقدّس عن السفه والعبث، لا يضع النبوّة إلا في نفس قدسية وجوهرة مشرقة علوية"[(1)].

وقال ابن عاشور: "وجملة: "إنّ ربّك عليم حكيم" تذييل بتمجيد هذه النعم، وأنّها كائنة على وفق علمه وحكمته، فعلمه هو علمه بالنفوس الصالحة لهذه الفضائل، لأنّه خلقها لقبول ذلك فعلمه بها سابق، وحكمته وضع النعم في مواضعها المناسبة.

وتصدير الجملة بـ "إنّ" للاهتمام، لا للتّأكيد؛ إذْ لاَ يشك يوسف عليه السّلام في علم الله وحكمته. والاهتمام ذريعة إلى إفادة التعليل. والتفريع في ذلك تعريض بالثناء على يوسف عليه السّلام وتأهّله لمثل تلك الفضائل"[(2)].

ويلاحظ أنّه قد تحقق في هذا الاقتران مصلحة عامة، ونفع شامل للخلق، فهي إنعام على يوسف عليه السلام، وهي حاجة ماسّة لبني إسرائيل في ذلك الوقت، فكم هي المصالح التي ترتبت على اصطفاء يوسف عليه السلام نبياً، فغرس عقيدة التوحيد في نفوس الناس وعلمهم العفّة والأمانة والعدل ومكارم الأخلاق، لقد سعدت به الأرض، واطمأن له الناس، وكم من نفع عميم رجع على الناس بالخير والبركة بتلك البعثة المباركة، وهو مقتضى العلم والحكمة.

ثانياً: التشريع في مجال تنظيم الأسرة والمجتمع

حظيت الأسرة والمجتمع بتشريع قرآني فريد، ينظّم شؤون أفراده، ويصحّح مسار علاقاته، ويفصّل نظام حقوقه. والمجتمع -أي مجتمع- إن لم يُتدارك بنظم وتشريعات هادية فسيخرج عن كونه مجتمعاً إنسانياً. والتاريخ والواقع يشهدان أنّ المجتمعات لم تحظ بالعدالة والطمأنينة إلا في ظلّ التشريعات التي تنزل بها الوحي على رسل الله وأنبيائه. والتاريخ والواقع يشهدان أنّ المجتمعات التي أقصت تشريعات الوحي عن واقع الحياة سادها الظلم والفوضى، بل الصراع فيما بينها بسبب انعدام العدالة وغلبة الأقوى، بل السبب في ذلك كله، قيام تلك التشريعات على الجهالة بمتطلبات النفس الإنسانية، وافتقار أصحابها إلى العلم والحكمة. في حين تستند تشريعات الوحي إلى العلم والحكمة التي يتصف بهما المشرّع سبحانه وتعالى، فهو الحكيم العليم، وهو العليم الخبير.

وإزاء تلك التشريعات الهادية، وإزاء تلك القضايا الإنسانية الملحّة يقع ذلك الاقتران بين اسميه تعالى: "العليم" و"الحكيم"، ويقترن بتلك التشريعات الهادية في دائرة تعنى بعلاقات الأسرة

(1) الرازي. مفاتيح الغيب، ج 18، ص 73.
(2) ابن عاشور. التحرير والتنوير. ج 12، ص 217.

والمجتمع، لما أنّ الأسرة نواة المجتمع، وصلاحها صلاحه. وثمة قضايا أساسية جوهرية في هذه الدائرة يجمع بينها جميعاً مبدأ العفّة والاستقامة، وتحصين الأسرة والمجتمع على الصعيد الأخلاقي والاقتصادي والقيمي. وهذه التشريعات، هي:

1. **الإيمان بالله تعالى أساس بناء الأسرة:**

وضع الإسلام أساساً مهماً في بناء الأسرة المسلمة، وهو أن تقوم على أساس الإيمان بالله تعالى، وتحريم تزويج الكافر أو التزوّج بالكافرة، لما لذلك التحريم من آثار إيجابية في استقرار الأسرة وتربية الأبناء، بيّن ذلك في سياق الحديث عن الهجرة في وقت بدأ التمايز فيه بين المجتمع المسلم وغير المسلم يظهر في كل مجال، قال في الظلال: "لقد كانت النشأة الأولى للجماعة المسلمة في مكة لا تسمح في أول الأمر بالانفصال الاجتماعي الكامل الحاسم، كالانفصال الشعوري الاعتقادي الذي تمّ في نفوس المسلمين، لأنّ الأوضاع الاجتماعية تحتاج إلى زمن وإلى تنظيمات متريثة. فلما أن أراد الله للجماعة المسلمة أن تستقل في المدينة، وتتميز شخصيتها الاجتماعية كما تميزت شخصيتها الاعتقادية. بدأ التنظيم الجديد يأخذ طريقه، ونزلت هذه الآية: "ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن..." نزلت تحرّم إنشاء أي نكاح جديد بين المسلمين والمشركين - فأما ما كان قائماً بالفعل من الزيجات فقد ظل إلى السنة السادسة للهجرة حين نزلت في الحديبية آية سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (10)﴾ (الممتحنة) فانتهت آخر الارتباطات بين هؤلاء وهؤلاء" [(1)]. وهي الآية التي وقع فيها الإخبار عن الله بأنه سبحانه عليم حكيم. إنّ بيتا لا يقوم على وحدة الاعتقاد لا يمكن أن يستمر أو أن تنشأ فيه حياة أسرية مطمئنة، وإن حياة زوجية تتنافر فيها عقائد الزوجين يصعب أن تدوم، وهي حكمة الله تعالى في نظام الخلق، وهي سنة إلهية من سنن الاجتماع البشري. وجاء اسم الجلالة ليعبر عن كمال هذا التشريع، وعظمته. وجاء اسم العليم ليبين استناده إلى علم الله المطلق، وجاء الحكيم ليدلل على الإتقان والإبداع في التشريع، أو على وضع الشيء في نصابه الصحيح؛ لأنّ الحياة الزوجية بالنسبة إلى المؤمن لا تستقر ولا تسودها السكينة ولا المودة والرحمة ما دامت الزوجة مشركة لا توّحد الله تعالى، ولا ترجو اليوم الآخر، فكيف سيلتقي الزوجان! ونظام الأسرة لا يحتمل أن يبنى على الخلاف نظرا لما يسببه من معوقات في نمو هذه الأسرة وامتدادها، وتربية أبنائها... ولذلك أوجب امتحان المهاجرات من النساء حتى يتبين إيمانهن فيكنّ صالحات للزواج بهن، وجعل التخلّي عن الزوجات المشركات أمراً واجب التنفيذ؛ لتأخذ الأسرة المسلمة استقلالها وما ينبني على ذلك

(1) سيد قطب. في ظلال القرآن (بيروت: دار الشروق) ج 1، ص 219.

الاستقلال من خصوصيات وأحكام. وصدق رسول الله إذ يقول: "... فاظفر بذات الدين تربت يداك" (1). ففيها تجتمع مؤهلات النجاح وأسسه من السكينة والمودة والرحمة.

2. تشريع في المحرّمات والمهور

في سياق تشريعي مقارب، يبين القرآن الكريم مسألة متصلة بالمحرمات من النساء، في قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ (النساء) فقد بينت الآية أصولاً في تشريع العلاقة بين الرجل والمرأة، فبعد أن حرّم تزويج المشرك والزواج بالمشركة والاقتران بها، أضاف إلى تلك المحرّمات التي حرّمها على الأزواج، الزواج بأكثر من أربع نسوة، وإباحة ما سوى ذلك من الإماء أو السبايا، وقصد من ذلك إلى تحقيق خلق العفّة في المجتمع المسلم عن طريق الزواج. وشرع المهر توصّلاً إلى ذلك، وهو حقّ واجب للمرأة، وبذلك يكون هذا التشريع قد حقّق كرامة المرأة حيث كانت في الجاهلية سلعة وإرثا، وكان الرجل يتزوج بعدد غير محدود من النساء، ولم يكن لهن حقّ في المهور، فرفع الظلم الواقع عليها من سطوة الرجل. وأكد أنّ هذا الحكم بني على علم الله المطلق وحكمته البديعة في سياسة شؤون الخلق خصوصاً في دائرة الأسرة بتنظيم علاقة الرجل بالمرأة فيها؛ لذلك جاءت فاصلة الآية بقوله: "إنّ الله كان عليما حكيما" بتقديم العلم على الحكمة لبيان أنّ حال الخلق لا يصلح إلا بهذا التشريع، فمن أعلم بشؤون الخلق ما يصلحهم وما يفسدهم من الله سبحانه؟ إنّه سبحانه ما شرع ذلك التشريع إلا لأنه عليم حكيم. وأرى أن الإتقان في التشريع هو المقصود بالحكمة أيضاً.

3. تشريع الاستئذان

في سياق مرتبط بالأسرة، وما يتعلق بصيانتها من كل أسباب الانحراف، يوجب الله سبحانه شريعة الاستئذان على مجتمع المؤمنين، فهو تشريع يمثّل أدباً اجتماعياً، وخلقاً زكياً، شرع لكي لا تتعلق النفس بما تقع عليه من عورات، فتنقاد بعد ذلك إلى فعل الفاحشة. وقد ختم آيتي الاستئذان بالاقتران بين صفتي العلم والحكمة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

---

(1) محمد بن إسماعيل البخاري. الجامع الصحيح، تحقيق: مصطفى البغا (بيروت: دار ابن كثير، 1407هـ) كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ج 5، ص 1958، حديث رقم 4802.

حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ (النور) بهذا البيان البديع، تتجلى الهداية الإلهية للناس في علاقاتهم وخصوصياتهم، ويوحي التعبير باسم الجلالة "والله عليم حكيم" بكمال هذا التشريع، وأنّه لا يصدر إلا عن علم وحكمة، فهو سبحانه أعلم بالنفوس لأنه خالقها، وأعلم بما جبلت عليه من ميل غريزي للشهوة، فإن بدت العورات وتكشفت الأجساد فمظنة وقوع الفاحشة كبيرة، وسيرتقي التفكير بها إلى أن تصبح هدفاً مقصوداً لذاته عند بعض النفوس. ولعلّ ما عليه كثير من الأمم اليوم من عري وإبداء للعورات وانشغال بقضاء الشهوة مثالاً صارخاً على انهيار الأخلاق الذي هو مقدمة انهيار الأمم والحضارات. لقد تكرّر وقوع هذا الاقتران في آيتين متتاليتين كلاهما يلزم بالاستئذان: إحداهما تلزم المماليك والأطفال به في أوقات معينة، وتأمر بتعليم هذا الأدب للأطفال قبل البلوغ. والثانية: تلزمهم به بعد البلوغ. ولأهمية هذا التشريع وعظيم خطره اقترن بالعلم والحكمة في حقّ الله تعالى مما يوحي بكماله وعظمته وأثره في استقرار حياة الإنسان.

4. حفظ النسل وصيانة الأعراض

من مقاصد الشريعة حفظ النسل وصيانة الأعراض، فشرعت كل ما من شأنه أن يحفظ الأسرة من الفساد، وحرّمت الزنا، وحرّمت القذف الذي هو اتهام بالزنا وطعن في أهلية الأسرة ودوامها، وبيّنت حكمه في النساء عموماً، وفي حق الأزواج على وجه الخصوص، ثم كذّبت ما نسب إلى أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، كل ذلك في سورة النور، وعقّب على تلك التشريعات بقوله تعالى: ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (النور) ووقوع الاقتران على هذا النحو يدلل على أنّ آيات الوحي قد تفوّقت على قوانين البشر وأنظمتهم في تحصين الأسرة، وضبط علاقات أفراد المجتمع على هذا الصعيد. وقد نجم عن الأوضاع الجاهلية آثار سلبية أفسدت الأسرة بالزنا، ولم توفر لها حصانة، وغالبا ما كانت تتحطم بسبب إشاعة كاذبة، أو تهمة باطلة،...، فهو تشريع صادر من عليم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، حكيم في إبداع هذا التشريع وإتقانه، والآيات هي دلائل ألوهيته في إقامة حياة البشر على أسس من العفة والنقاء والطهر والفضيلة. وكما وقع الإبداع والإتقان في خلق الكون والإنسان، وقع كذلك في نظم القرآن وتشريعاته. وقد مثلت تلك التشريعات صمام الأمان في حياة الأسرة.

وفي سياق متعلق بالأسرة، ذكّر سبحانه بهذه الآيات في سورة النساء، ووقع الاقتران فيها بياناً لتفضل الله وإنعامه على الخلق وامتنانه عليهم بالهداية والبيان والتوبة، مما فيه استشراف المستقبل، والعفو عما مضى بالتوبة. ليحدث عملية الانطلاق المحكم إلى البناء والتنمية. في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ (النساء) وهذا البيان تمثل في تشريعات كبرى، مثل: تشريع الميراث، وتشريع التوبة، وبيان المحرّمات من النساء، وبيان السبيل المشروع في الارتباط بالنساء.

5. تشريع الميراث

من القضايا المتصلة بالأسرة، وتنظيم شؤونها قضية الميراث وما انبنى عليه من تحديد عادل لحقوق الورثة ذكورا وإناثا، كما في قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء:11)

والطابع العام في الآية يؤكد أن نظام الميراث مبني على العلم والحكمة. فلا يدخل حكمه خلل ولا زلل؛ لأنّه قضاء من لا تخفى عليه مواضع المصلحة في البدء والعاقبة"، كما ذكر الطبري([1]). فإنصاف المرأة ومنحها حقوقها التي سلبتها الجاهليات القديمة بل المعاصرة أيضاً، أمر يتطلب سعة صدر من الرجال الذي ضاقت بهم عقولهم وقلوبهم عن استيعاب الحكمة الإلهية في هذا التشريع. إنه مقام يتطلب الوقوف على الحكمة الإلهية لإدراك أنّ هذه الحكمة مبنية على علم الله المطلق بأحوال الخلق ما يصلحهم وما ينفعهم. قال الرازي: "والمعنى أن قسمة الله لهذه المواريث أولى من القسمة التي تميل إليها طباعكم، لأنّه تعالى عالم بجميع المعلومات، فيكون عالما بما في قسمة المواريث من المصالح والمفاسد، وأنّه حكيم لا يأمر إلا بما هو الأصلح الأحسن، ومتى كان الأمر كذلك كانت قسمته لهذه المواريث أولى من القسمة التي تريدونها،"([2]) فلا ينبغي أن يضيق أحد بهذه الحقوق التي حدّدت نصيب كل وريث من ذكر أو أنثى بما يقتضيه العلم، وبما تقتضيه الحكمة بالنظر إلى النظام الاجتماعي الذي وضعه الإسلام. وقدّم العلم على الحكمة لبيان أنّ ما يصلح لحال الخلق بني على علم الله المطلق المقترن بالحكمة التي هي الإبداع والإتقان في التشريع، والتي لا تقل إتقانا أو إبداعاً عن خلق الإنسان نفسه.

ويلحظ في الآية الكريمة أنها جعلت الأنثى محور الحديث في الميراث، لأنّ حقها حقّ راسخ وليس طارئاً، ووضع في الموضع اللائق به، وبناء عليه يقاس حق الرجل في الميراث، وهذا تشريع من لا تخفى عليه خافية، تشريع العليم الحكيم.

6. تشريع الزكاة

تشريع الزكاة من التشريعات الاقتصادية والاجتماعية التي تتصل بتنظيم المجتمع الإسلامي من حيث ترابطه وتواصله، وشدّ بعضه من أزر بعض، لما أنّها سبب رئيس في تحقيق التكافل

---

(1) الطبري. جامع البيان، ج 7، ص 51.
(2) الرازي. مفاتيح الغيب ، ج 9، ص 177.

الاجتماعي، وهي كذلك من الأسباب الرئيسة في إذابة الفوارق الاقتصادية التي ينجم عنها النظام الطبقي بين مكوّنات المجتمع، الأمر الذي لم تعرفه المجتمعات الإسلامية في تاريخها الطويل، لأنه نظام طبقي مقيت بغيض.

وجعلها الله سبحانه في ثمانية أصناف غطت قطاعات مكروبة في المجتمع المسلم لا يحيط بحاجاتها أو أنّاتها وأوجاعها إلا العليم الحكيم سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾ (التوبة)

فالفقراء والمساكين هم أشد فئات المجتمع حاجة للمال، ولا يصل لهم ذلك إلا بفئة تقوم على تحصيلها من الأغنياء ومنحها للفقراء، وأما المؤلفة قلوبهم فلا تدفع لهم رشوة، وإنما تعدّ الأسلوب الأمثل في إظهار وحدة المجتمع المسلم وتكاتفه وتآلفه وتراحمه ففي ذلك إغراء لهم بالانضمام إلى هذه الوحدة المجتمعية القوية، فهؤلاء يُمَلّكون نصيبهم من الزكاة، فهي حقّ واجب لهم يطالبون بها بكل جرأة وقوّة، وهو ما يبعد عنهم ذلّ الانكسار أو الشعور بالعار. وجعلها كذلك سبيلا من سبل تحرير الإنسان من رقّ العبودية، وإعانة لمن أثقلتهم الديون، وكذلك في الجهاد في سبيل الله، وابن السبيل الذي انقطعت به السبل عن بلوغ مقصده. ويلاحظ في هذه الأصناف الثمانية أنّ ثلاثة منها جاءت إعزازاً لدين الله تعالى، ففي "المؤلفة قلوبهم" تكثير لسواد المسلمين، ومصرف "الرقاب" فيه تأهيل وتفعيل لقوى تلك العناصر التي كانت مقيدة الأهلية في المجتمع، أما مصرف "سبيل الله" ففيه حماية للأمة ووقاية لها، قال الطبري في بيان "سبيل الله" أنه : "النفقة في نصرة دين الله وطريقه وشريعته التي شرعها لعباده بقتال أعدائه "[1] فكما ينصر دين الله بالحجّة والبيان، ينصر كذلك بالمال والسلاح. ولم يبق بعد صنف يحتاج إلى نصيب من الزكاة إلا أخذه، ونتج عن ذلك حفظ كرامة الفرد، وكرامة الأمة، وكرامة المجتمع وتكاتفه.

كذلك، فإنّ في بذل الزكاة والصدقة تحريراً للإنسان من التعلّق بالمال أو التبعية له، وتقرر بذلك أنّ المال ليس أكثر من وسيلة فاعلة بيد الإنسان، فجمعه ليس غاية أو مقصداً للمسلم في الحياة. إنما يتوجّه لخدمة المقاصد الجليلة لهذا الدين. وهذا إبداع في التشريع وإتقان في التقنين، ولا يصدر إلا عن الله العليم الحكيم.

7. تشريع الكفارات

أ. كفارة الأيمان

من التشريعات التي ورد فيها اسمه العليم مقترناً باسمه الحكيم تشريع كفارة الأيمان، وكفارة القتل الخطأ. وهما كفارتان تقتضيان الالتزام بفعل حسن كعتق رقبة، أو إطعام مساكين، أو إخراج

(1) الطبري. جامع البيان، ج 14، ص 319.

مال، أو صيام، تعويضاً عن فعل غير حسن كالحنث في اليمين، أو فعل قبيح كالقتل الخطأ؛ ليكون ذلك تطهيراً للمسلم، وتنقية له من ذلك الفعل غير المقبول عند الله تعالى. وهذا مسار من مسارات تزكية النفس والارتقاء بها نحو الكمال.

قال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ۚ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (التحريم:2) اليمين: هي الحلف. وفي اصطلاح بعضهم: تحقيق أمر غير ثابت محتمل ماضيا كان أو مستقبلاً[(1)]، وقد يكون تأكيد العزم باليمين على تحقيق أمر ما أقرب إلى المعنى الاصطلاحي. أو هو قسم وعهد مع الله تعالى لتحقيق أمر، أو الامتناع عن شيء، وهو مما يشغل بال المسلم فيهتمّ لأجله ويغتم، لأنّه لا يملك على الدوام القدرة على تحقيقه، وقد تنازعه نفسه، وقد يتعرض لضغوط من خارج نفسه، فيقع في الحرج والمشقة، وقد جاء هذا الدين لرفع الضيق والحرج، وإبطال شرعة الإصر والأغلال، فشرع كفارة اليمين تسرية عنه وتسلية، فالله هو العليم بمقاصد المؤمن ونواياه من ذلك اليمين، وهو العليم سبحانه بما يصلحه منه وما يفسده، فشرع له بحكمته كفارة تعينه على الارتقاء في تزكية النفس، فيخرج من ثقل ذلك العهد الذي قطعه على نفسه، فيزول ما به من غمّ وهمّ. قال الماتريدي: "(الْعَلِيمُ) بمصالحكم أو مقاصدكم، أو بما تسرون وما تعلنون، أو بما كان ويكون، (الْحَكِيمُ): الذي لا يلحقه الخطأ في التدبير، أو حكيم بما حكم عليكم من تحلة الأيمان، واللَّه أعلم. ثم في قوله: (الْعَلِيمُ) إلزام المراقبة والمحافظة، ودعاء إلى التبصر والتيقظ في كل ما يتعاطاه المرء من الأفعال، ويأتي به من الأقوال. وفي قوله: (الْحَكِيمُ) دعاء إلى التسليم بحكم اللَّه تعالى؛ إذ الحكيم لا يحكم على أحد إلا بما فيه حكمة وفائدة؛ فلزمه تسليم النفس لحكمه على وجه الحكمة فيه أو جهله".([2]) ويلحظ في هذه الفاصلة أنها مختصة عن مثيلاتها بأسلوب القصر الذي يفيد أن المشرع والناصر للنبيّ والمؤمنين هو من انبنى أمره ونهيه على كمال العلم المطلق والحكمة المطلقة.

ب. تشريع كفارة القتل الخطأ

من القضايا التي وقع فيها الاقتران بين اسميه تعالى "العليم والحكيم" قضية تتعلق بقتل النفس إن كانت مؤمنة، فقد حرّم الله تعالى قتل المؤمن إلا خطأ، فإن وقع فعليه كفارة القتل، وهي تحرير رقبة مؤمنة، ودية مسلّمة إلى أهل القتيل إلا أن يصدّقوا، فإن وقع قتل المؤمن وهو في صفوف الكفار دون علم، فتقتصر الكفارة على تحرير رقبة مؤمنة تعويضاً للنقص الواقع في النفوس المؤمنة، وإن كان القتيل المؤمن من قوم معاهدين فيلزم القاتل دفع الدّية احتراما للعهد والميثاق، إضافة إلى تحرير رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ

(1) محمد الزهري الغمراوي. السراج الوهاج على متن المنهاج (بيروت: دار المعرفة) ج 1، ص572.
(2) محمد بن محمد، أبو منصور الماتريدي. تأويلات أهل السنة، تحقيق: مجدي باسلوم، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1426) ج 10، ص 78-79.

إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾ (النساء) إنّ العلم والحكمة هما السبيل الأمثل إلى هذا التشريع الضابط والضامن لحقوق الخاصّة من الورثة والعامة من المجتمع، فألزم عاقلة القاتل بدية إلى الورثة أو تطييباً للخواطر كما في قتل المؤمن إن كان أولياؤه معاهدين، وبتحرير رقبة مؤمنة بدل تلك التي فقدها المجتمع. هذا التشريع بني على العلم المطلق والحكمة البيّنة، فقد استثمر الضرر اللاحق بالمؤمن في إطلاق العنان لتحرير الرقاب، وإخراج النفس من وضع الرقّ إلى وضع الحرية وهذا مكسب نوعي للمجتمع المسلم أو لصفّ المؤمنين.

وعلى المستوى الفردي فإنّ الله سبحانه أتاح للقاتل خطأً فرصة التوبة وتطهير النفس من هذا الإثم الكبير لقاء عدم توخيه الحذر والتحرّي عند قتله نفساً بريئة، وذلك بعتق رقبة من الناحية المادية، وإن لم يستطع فبصيام شهرين متتابعين من الناحية الروحية. ومعنى هذا أن قتل نفس مؤمنة لا ينبغي أن يمرّ دون أن تتفاعل أبعاده في المجتمع فيستثمر لتفعيل التكافل الاجتماعي، وتوسيع نطاق الحرية بعتق الرقاب، وتربية القاتل... وذلك كله شرط لعفو الله بقبول توبة القاتل. وفي ضوء هذا التشريع لم يبق لأحد حقّ على أحد، ولم يبق في النفوس غلّ ونزعة انتقام وداعية ثأر، وهذا منتهى العلم ورأس الحكمة في قضية لا تحسن النفوس فهمها، وتعدّ من أخطر القضايا التي تثير الاضطراب والفوضى في المجتمع. قال الشعراوي: "فالعلم من الله بالنفس البشرية جعل من قتل خطأً يُفيد المجتمع الإيماني بتحرير رقبة، فيزيد المجتمع إنساناً حراً يتحرك حركة إيمانية؛ لذلك اشترط الحق أن تكون الرقبة مؤمنة، حتى نضمن أن تكون الحركة في الخير، فنحن لا نحرر رقبة كافرة؛ لأنّ الرقبة الكافرة عندما تكون مملوكة لسيد فشرها محصور، لكن لو أطلقناها لكان شرّها عاماً"[(1)]. فضلاً عن كون العلم والحكمة من مقتضيات الألوهية.

ثالثاً: في مواطن الصبر وعدم اليأس

وقع الاقتران في مواطن متصلة بموضوعات تتطلب صبراً مضاعفاً، وثباتاً كبيراً كموضوع القتال وما يتصل به من تحقيق هيبة الأمة الإسلامية ومكانتها بين الأمم، فالأمة التي تسعى لذلك تنشئ الجيوش القوية وتعدّها وتدربها للقتال حفاظاً على وحدتها وكرامتها، وهي على استعداد لأن تضحي بفئة من أبنائها في سبيل أن تبقى قوية مهيبة الجانب، أما إذا انغمست في الشهوات والملذات فإنّ انهيارها مؤكد، سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ففي غزوة أحد دعا الله المؤمنين إلى الاستعلاء على الجراح، وعدم الفتور في طلب الكفار وقتالهم على الرغم مما حلّ بهم من قرح وآلام، فحالهم كحالهم في الألم والتأوّه، لكنّ بهم من الجلد ما يدفعهم إلى قتالكم، أفلا تصبرون على قتالهم وحالكم مع الله أفضل من حالهم، فأنتم ترجون

(1) الشعراوي. خواطري حول القرآن، ج 4، ص 2547.

النصر أو الشهادة، وترجون الجنة، وكل ذلك بيد الله تعالى، فذلكم الرجاء سبب في أن لا تضعفوا أو تستسلموا، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (النساء) عليم بحال أوليائه، حكيم بابتلائهم لما يترتب على هذا الابتلاء من فوائد جمّة، ولما لها من أثر في بناء الإنسان الرباني الذي يبيع نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى. قال أبو السعود: "وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً" مبالِغاً في العلم والحِكمةِ؛ فيبني أحكامَه وأفعالَه على أساس الحِكمةِ والمصلحةِ. والجملةُ اعتراضيةٌ مقرّرةٌ لمضمون ما قبلَها، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موضع الإضمارِ للإشعار بعلة الحُكمِ، فإنّ الألوهية منشأ لاتصافه تعالى بصفات الكمالِ"[(1)]. فَسّرُ الفاصلة متصل بقوله تعالى: "ولا تهنوا في ابتغاء القوم" وهو أمر لازم التنفيذ، ويتطلب استعدادا وجاهزية مستمرة على الرغم من جوانب الضعف والخلل، ويفتح باب الرجاء والأمل، فلا تصير إلى حال اليأس، وبذلك تبقى الأمة في حال استشعار القوّة وعدم الركون إلى الدّعة أو السكون! وهو تشريع استند إلى علم الله المطلق وحكمته البالغة. فالاستسلام للجراح يوصل إلى مزيد من الضعف، وفقدان باب الأمل يوصل إلى اليأس، لكن بذلك التشريع يعصم الله الأمة من اليأس ويرتقي بها في علياء المجد والسؤدد؛ لأنّها دائمة التعلّق بالله تعالى.

وفي اقتران آخر، في شأن صلح الحديبية وما تسبب عن شروطه من ضيق وحرج لعموم المسلمين، فقد ضاقت به الصدور، واضطربت القلوب، وتألمت النفوس، لكن الله ثبّت المؤمنين "حتى لم يتضعضعوا من الشروط التي عقدها صلى الله عليه وسلم مع المشركين، مَن رَدّ مَن أسلم منهم، وعدم ردهم مَن رجع إليهم، ومِن دخول مكة قابلاً بلا سلاح، وغير ذلك مما فعله صلى الله عليه وسلم معهم بالوحي"[(2)]. من أجل أن لا يتطرق اليأس إلى قلوبهم، **ورد** قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ (الفتح) فقد ابتلاهم بالصبر على شروط الصلح حتى ضاق عمر الفاروق رضي الله عنه بها. وجعل الله صلح الحديبية فتحاً على الرغم من كل تلك الشروط، وأنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزيدهم إيماناً وثقة وطمأنينة بنصره تعالى، فهو سبحانه من له جنود السموات والأرض فلا داعي للخوف والقلق مادام الله تعالى هو من بيده نواصي الأمور، وسواء أدرك الإنسان الحكمة من الأمر أو النهي أم لم يدرك فما عليه إلى الانقياد والتسليم؛ لأن أمره تعالى ونهيه مبني على كمال العلم والحكمة.

إنّ دعوة القرآن المؤمنين للقتال والصبر على كل حال يرفع معنويات الأمة، ويحقق لها مكاسب كثيرة، ففي سورة التوبة التي كانت آياتها من أواخر ما نزل من القرآن، أمر المؤمنون بقتال الكافرين إعلاءً لكلمة الله وإعزازاً لكرامة الأمة ومكانتها، وقد وقع الاقتران بين العلم والحكمة في هذا السياق؛ ليتبين حجم الفوائد المترتبة على ذلك القتال، ومع أنّ القتال فيه مشقة كبيرة على

---

(1) أبو السعود. إرشاد العقل السليم، ج 2، ص 156.
(2) أحمد بن محمد بن المهدي، ابن عجيبة. البحر المديد ،(بيروت: دار الكتب العلمية، 1423هـ) ج 7، ص 133.

النفس، إلا أنّ الحكم المترتبة عليه أعظم، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ (التوبة) قال في اللباب: "هذه المنافع الخمسة ترجع إلى تسكين الدَّواعي الناشئة من القوَّة الغضبيَّة: وهي التَّشفي، ودرك الثَّأر وإزالة الغيظ، ولم يذكر فيها وجدان المال، والفوز بالمطاعم والمشارب؛ لأنَّ العرب جبلوا على الحميّة والأنفة، فرغبهُم في هذه المعاني لكونها لائقة بطباعهم"[(1)]. وهي من فوائد الأمر بقتالهم، وهو تشريع بني على علم الله المطلق وحكمته البالغة، وفيه امتنان عليهم، كأنّه يقول: "لقد شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الأحْكَامِ فِيهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ، وَإِظْهَارِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. فَمَشِيئَتُهُ فِي التَّائِبِينَ وَالْمُصِرِّينَ تَجْرِي بِمُقْتَضَى عِلْمِهِ الْمُحِيطِ بِشُئُونِ خَلْقِهِ، وَحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ فِي السُّنَنِ الَّتِي وَضَعَهَا لِسَيْرِ الاجتماع الْبَشَرِيِّ، وَفِي الأحكام الَّتِي شَرَعَهَا لِهِدَايَةِ النَّاسِ. وَمِنْ سُنَنِهِ تَفَاوُتُ الْبَشَرِ فِي الْعَقَائِدِ والأخلاق والأعمال. وَقَابِلِيَّةُ التَّحَوُّلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ كَدَرَجَاتِ تَأْثِيرِ الشِّرْكِ فِي أَنْفُسِ الأفراد مِنْ قُوَّةٍ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الإصرار إِلَى الْمَمَاتِ، وَضَعْفٍ قَابِلٍ لِلزَّوَالِ فِي بَعْضِ الأوقات، بِمَا يَطْرَأُ عَلَى أَصْحَابِهَا مِنَ الأسباب وَالْمُؤَثِّرَاتِ، وَلَيْسَتْ مَشِيئَتُهُ تَعَالَى فِي التَّوْبَةِ عَلَى مَنْ يَتُوبُ عَلَيْهِ مِنْهُمْ إِكْرَاهًا لَهُمْ عَلَى الإيمان"[(2)]. وكما يظهر، فإنّ اقتران بين العلم والحكمة يتجلّى في كون هذا التشريع مما لا يتنبّه إليه الإنسان، وهو تشريع يفوق إمكاناته وتصوراته بالنظر إلى حجم الفوائد والحكم المترتبة عليه.

ووقع الاقتران بين هاتين الصفتين في سياق الصبر على الوقوف عند أوامر الله التي تتصل بالولاية على بيت الله الحرام، وما لذلك من أثر في تطهير البيت من كل أشكال الرجس والوثنية، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ (التوبة) إنّ حجّ المشركين للبيت كان يدرّ أرباحاً ومكاسب مادية على المسلمين، فلو انقطع المشركون عنه ستفوت هذه المصالح والمنافع عليهم، فأمر الله سبحانه وتعالى أن لا يقرب هؤلاء بيته المحرّم، لأنّ عباداتهم من صلاة وحج... قائمة على الشرك؛ فهم لأجل ذلك نجس. إنّ قضية الإيمان أهم وأعظم، وقطع وصاية المشركين على البيت أولى وأجدى من أيّ مصلحة أو منفعة، فلا بد للمتقين أن يستردّوا ولايتهم على بيت الله الحرام، فهي قضية حقّ ضدّ باطل، فهل يصبرون على الالتزام بأمر الله ولو كان في ذلك انقطاع لبعض ما يدخل عليهم من رزق؟

وتأتي مناسبة اسمه "العليم" مؤكدة علم الله بما سيترتب على ذلك الأمر من آثار، وهو سبحانه أعلم بما يتردّد في صدور المؤمنين، وما يراود نفوسهم من وساوس أو خواطر، وكأنّه تنبيه لهم

---

(1) الرازي. مفاتيح الغيب، ج 16، ص 4. وانظر: ابن عادل. اللباب في علوم الكتاب، ج 10، ص 29.

(2) محمد رشيد رضا. تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار (مصر: الهيئة المصرية للكتاب، 1990) ج 10، ص 177.

بأنّ الله مطّلع عليهم، وعلى مبلغ قبولهم أو رضاهم عن أمر الله والتزامهم به؛ مما يثير فيهم داعية الالتزام باستشعار الرقابة الإلهية عليهم. وهو يطمئنهم من وجه آخر، بأنّه سبحانه أعلم بحوائجهم فسييسر لهم موارد أخرى. ومناسبة اسمه الحكيم ظاهرة من حيث تقرير مبدأ الانفصال العقدي والشعوري عن المشركين، وانفصال آخر مادي يتمثل في أن لا يقصدوا المسجد الحرام قبلة المسلمين بأي نوع من أنواع العبادة، فعبادتهم باطلة لقيامها على أساس باطل. ومن شأن هذا أن يثير فيهم داعية التفكير فيما هم عليه من شرك، فلعلّ ذلك يعيدهم إلى الحق، لاسيما أنّ للمسجد الحرام في نفوسهم احتراماً وتقديراً، وفي هذا نفع لهم. أما المؤمنون فيتميزون بدينهم، وتبرز هيبتهم ومكانتهم بوصفهم أمة مستقلة غير تابعة، ذات شأن وكرامة.

ووقوع الفاصلة جملة اسمية وتأكيدها بـ(إنَّ) وتصدير الكلام بلفظ الجلالة الذي يدل على اتصاف ذاته الكريمة بكل كمال وجلال -دلالة على صدق ما وعد... وقد أنجز الله تعالى ما وعد، فقد أغنى الله تعالى أهل مكة ومن حولهم بالجزية والخراج، وإسلام أهل اليمن، وكان ذلك عقب الفتح، فجاءهم الحجيج بأرفاقهم، مسلمين غير مشركين، وما حرموا من خير كان يجيء إليهم، بل استمر ومعه زيادة وهو يجيء طيبا من أطهار، وأرسل عليه السماء مدراراً، فأنبت الزرع وأثمر الشجر، وأتت الأنعام بالخير[1].

كذلك، وقع اقتران فريد في بابه، من حيث إن كل ما ورد من اقترانات كان إخباراً من الله تعالى، والذي هنا وقع إقراراً نطقت به الملائكة الكرام، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ سُبۡحَـٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (البقرة:32) ويعلمنا الله سبحانه أن نسلم بأفعاله وأحكامه التي تفوتنا معرفة الحكمة فيها، وأن نتلمس الوقوف على وجه تلك الحكمة، فقد رأت الملائكة أنّها أولى بالاستخلاف في الأرض، فلما برز آدم عليه السلام بما أهله الله به من علم سلّمت الملائكة لأمر الله تعالى وأقرّت بتقديس الله وفعله عن العبث، واعترفت ناطقة" إنّك أنت العليم الحكيم". قال الرازي: "العليم من صفات المبالغة التامّة في العلم، والمبالغة التامة لا تتحقق إلا عند الإحاطة بكل المعلومات، وما ذاك إلا هو سبحانه وتعالى، فلا جرم ليس العليم المطلق إلا هو، فلذلك قال : "إنك أنت العليم الحكيم" على سبيل الحصر"[2].

وكذا شأن الحكمة التي تتجلى في خلق الإنسان واستخلافه في الأرض، وفي سجود الملائكة له، وفي تأهيله لمتطلبات الخلافة حكمة،..؛ ليعرف الإنسان منزلته عند الله تعالى، ومكانته في هذا الوجود. فتلاحظ أن وقوع هذا الاقتران قد دلل على سياق لا يحتمله إدراك المخلوق للوهلة الأولى، وتضيق نفسه به، فلا بدّ من تطلب الحكمة في خلق الإنسان وتكليفه.

وفي سياق آخر يتعلق بمحنة يعقوب حين فقد الابن الثاني له بعد فقد يوسف عليهم السلام، وظلّ على أمل كبير ورجاء بالله تعالى وهو أعلم الناس بربه، وقع هذا الاقتران، قال تعالى حاكياً

(1) انظر: زهرة التفاسير، ج 6، ص 3275.
(2) الرازي. مفاتيح الغيب. ج 2، ص 192.

عنه: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:83) وتظهر مناسبته هنا جلية واضحة، فإيراد اسمه تعالى "العليم" لما أنّ يعقوب عليه السلام استودع مصير ولديه علم الله تعالى، إنّ علم الله ملجأ لجأ إليه ليجدَ فيه الأنس والأمل والسلوى، فهو أهم ما تتطلبه نفسه، أن يكون واثقاً أنّهما في علم الله وحفظه. أما اسمه "الحكيم" فمناسبته أنه موقن بابتلاء الله له، ويعلم أنّ هذا الابتلاء لم يقع عليه إلا لحكمة يعلمها الله تعالى. فكان هذا الاسم عوناً له على الحزن والأسى الذي عانى منه مدّة طويلة. ولو رأينا آثار الحكمة الإلهية لرأينا تجلياتها الشاملة على يوسف وعلى أبيه، وعلى أخيه وعلى إخوته، أما يوسف فأصبح عزيز مصر، والقائم على خزائن الأرض فيها، وأما يعقوب فظلّ على ثقة بالله سبحانه، ووصل إلى مرتبة من مراتب العلم بالله" ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (يوسف) ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (يوسف) وهذه مرتبة عظيمة، وكيف ظهرت له آثار الصبر القائم على الثقة بالله تعالى. وأما أخو يوسف فقد رأى من آيات الله، وعاش في كنف يوسف منعماً مكرّماً فترة من الزمان، وأما إخوة يوسف فقد أظهرهم الله على حقيقتهم، ورأوا حقيقة نفوسهم بأم أعينهم "تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين"، وامتحن قلوبهم، ومحّص إيمانهم حتى أقبلوا على التوبة" قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين" وأنقذ شعب مصر من ضنك العيش، ودعا إلى توحيد الله تعالى. وعلّم العبد كيف يعتصم بالله تعالى عند الابتلاء، وأي أسماء الله الحسنى يدعوه بها في مثل هذه المواطن.

وفي سياق متصل بالقضية نفسها وحين تحقق ما تحقق من رؤيا يوسف عليه السلام، تجلّت آثار علمه وحكمته سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(يوسف:100) فاسمه العليم ناسب ارتباطه بكل أحداث القصة وما آلت إليه، ابتداءً برؤيا يوسف وانتهاءً بظهور شأنه، وتحقّق رؤياه بسجود أخوته له، فكل حدث فيها إنما وقع بعلم الله تعالى، وهو سبحانه يسوق هذه الأحداث وفق حكمته، في رعاية أنبيائه والذين آمنوا معهم، وفي تأييد الحقّ الذي جاءوا به، وتجلّت الحكمة في إعادة بناء علاقته بأخوته وقد رأوا من آيات الله ما أظهر يوسف عليهم فضلاً وعلماً، وديناً ودنيا، وتجلّت الحكمة في إقبالهم على التوبة والإنابة والاستغفار وفي هذا كل الخير لهم، وفي النتيجة لم يخرج أحد خاسراً في نهاية القصة لا شعب مصر ولا ملكها، ولا أخوته، ولا والديه، وهذه نهاية حكيمة للقصة. وفي هذا بشرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ستؤول أحداث قصته إلى انتصار الحقّ، وعلوّ شأنه، وهي نهاية حكيمة على الرغم مما مرّ بها من أحداث أليمة.

رابعاً: في السنن الإلهية

وقع الاقتران بين اسمه العليم والحكيم في القرآن الكريم مرتبطاً بالعديد من السنن الإلهية في النفس الإنسانية تربية لها، وتصحيحاً لمسارها، وهذه السنن هي:

أ. مشيئة الله الخالق فوق مشيئة المخلوق

من السنن الإلهية الفاعلة في الخلق أن مشيئة الله هي النافذة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأما مشيئة العبد فهي تابعة، إن شاء الله أنفذها، وإن لم يشأ حال بينه وبين ما يريد وفق علمه المطلق وحكمته البالغة، ففي هذا السياق ورد الاقتران بين اسميه العليم والحكيم، ليبين أنّ الإقبال على الإيمان والهداية أو الإعراض عنهما مرهون بمشيئة الله تعالى، وهذه سنة من سنن الله في الخلق، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ (الإنسان:30). أي: إنّ الله علم ما عليه الناس من إيمان وكفر، وهدى وضلال، ورشد وغواية، وتصديق وتكذيب، وهو حكيم إذ كانوا على هذا الحال، ليبلوا بعضهم ببعض، ويجعل بعضهم لبعض فتنة، ويذيق بعضهم بأس بعض، أو يدخل بعضهم الجنة لأجل بعض. ولذلك لا يتمكن أحد من الخروج مما هو فيه من بؤس وشقاء وكفر وضلال إلا بمشيئة الله تعالى وتوفيقه، وهذا أدعى إلى أن يكون العبد في حالة رجاء وترقب، وانتظار بتلهف لرحمة الله تعالى. وجعل المفسرون مشيئة الله معلقة باختيارهم طريق الإيمان، قال ابن عجيبة: "وما تشاؤون" اتخاذَ السبيل إلى الله، أو: ما يشاء الكفرة "إلاّ أن يشاء الله"، وهو تحقيق للحق ، ببيان أنَّ مجرد مشيئَتهم غير كافية في اتخاذ السبيل ، ولا يقدرون على تحصيله في وقت من الأوقات، إلاّ وقت مشيئته في تحصيله لهم، إذ لا دخل لمشيئة العبد إلاّ في الكسب، وإنما التأثير لمشيئة الله تعالى.[1] ووقوع الفاصلة على هذا النحو من الاقتران بين اسميه العليم والحكيم "بيان لكون مشيئته تعالى مبنية على أساس العلم والحكمة، أي: هو تعالى مبالغ في العلم والحكمة، فيعلم ما يستأهله كل أحد، فلا يشاء لهم إلاّ ما يستدعيه علمه وتقضيه حكمته".[2] قال ابن عاشور: "فهو بعلمه وحكمته ينوط مشيئته لهم الاستقامة بمواضع صلاحيتهم لها فيفيد أنّ من لم يشأ أن يتخذ إلى ربه سبيلاً قد حرمه الله تعالى من مشيئته الخير بعلمه وحكمته كناية عن شقائهم."[3] وبذلك يكون العبد أشدّ طلباً وأكثر حرصاً على الأخذ بأسباب الهداية، وهذا لصالح العبد إذ يثير في نفسه الرغبة والرهبة، فيلجأ إلى طلب الفوز والرضوان، والنفور من الضلالة والعصيان.

(1) ابن عجيبة. البحر المديد، ج 8، ص 202.
(2) أبو السعود. إرشاد العقل السليم، ج9، ص 76.
(3) ابن عاشور. التحرير والتنوير، ج 30، ص 167.

ب. المبادرة إلى التوبة ضمان لقبولها

التوبة مصدر للفعل الثلاثي تاب، وتعني "الرجوع عن المعاصي بالندم عليها، والعزم على أن لا يعاودها أبداً"(1). وتشريع التوبة يعدّ عنصر الأمان لحياة الإنسان بالنظر إلى طبيعته وما تركّب فيه من قوى شهوية وغضبية وعقلية. وقد يخرج عن جادّة الحق والصواب بفعل هذه القوى، وخصوصاً الشهوية منها، فيقع في الإثم والمعصية التي تحدث آثاراً سلبيةً على نفسية الإنسان وطريقة تفكيره، فيجنح إلى ممارسة المزيد من المعاصي والآثام، فيؤذي نفسه ويؤذي الآخرين، بل يؤذي المجتمع كله بفعله وسلوكه، ولأجل المحافظة على طبيعة الإنسان وحفظ توازنه فتح الله له باب التوبة لينضبط ويرجع عن كل كفر ومعصية وإثم؛ ولذلك كثر وقوع هذا الاقتران في سياق الحديث عن التوبة في أحوال عديدة، فقد جعل الله التوبة سنّة جارية وقانوناً عاما في حياة المسلم، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ ﴾ (النساء) فهي مما أوجبه الله تعالى على نفسه رحمة منه بعباده، وعناية بهم، إنّه: "يمنح عباده الضعاف فرصة العودة إلى الصف الطاهر ولا يطردهم أبداً وراء الأسوار وهم راغبون رغبة حقيقية في الحمى الآمن والكنف الرحيم "(2). لقد بيّن أنّ: "هؤلاء الذين ارتكبوا عن جهالة بعض الذنوب، ولم تَرْبَدَّ قلوبهم بتكرار الذنوب وتعدّدها واستمرائها والاستمرار عليها، يتوب الله عليهم، أي: يقبل توبتهم، ويأخذ بأيديهم إلى الهداية ويطهر نفوسهم من أرْجاس الذنوب، وهذا ما تضمنه النص السامي (يتُوبُ اللَّهُ) أي يسبغ التوبة عليهم، وهي تتضمن معنى الاهتداء والاتجاه إليه سبحانه، وإسباغ التوبة عليهم هو إلقاء الطهر عليهم فتتطهر نفوسهم، وقد بين سبحانه أن ذلك مقتضى علمه وحكمته، فقال: وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا، أي: أن الله تعالى يعلم النفوس وحركاتها وخلجاتها وسكناتها وميولها وانحرافاتها، ويعلم ما يطهرها، وما يركسها، وما يهديها وما يغويها، وهو بحكمته يعالج أدواءها. وقبول التوبة أبلغ علاج، والصفح في أكثر أحواله دواء للأسقام التي تعرض للنفوس، ولم تستقر فيها استقراراً(3). ولا يبلغ هذا التشريع أحد إلا العليم الحكيم.

ويتأكد وقوع هذا الاقتران في سياق الحديث عن التوبة أيضاً، لكنها هنا في شأن الذين تخلّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فأنزل الله في شأنهم قرآنا يتلى إلى يوم الدين تحذيراً وإنذاراً لكل من يتخلّف عن داعي الجهاد في سبيل الله تعالى، فقال في شأنهم: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (التوبة) وتتجلى معاني العلم والحكمة في تأخير الله سبحانه قبول توبتهم وامتداد معاناتهم وقطيعة المجتمع لهم، وهجرانهم زوجاتهم خمسين ليلة؛ ليتضخم حجم الذنب الذي اقترفوه بتخلفهم عن اللحاق بركب الجهاد في غزوة تبوك،

---

(1) أبو السعود. إرشاد العقل السليم، ج 8، ص 241.
(2) سيد قطب. في ظلال القرآن، ج 2، ص 73.
(3) أبو زهرة. زهرة التفاسير، ج 3، ص 1614.

ويبدو لهم كجبل فوق صدورهم فإن استشعروا عظمة الذنب، ارتقت نفوسهم إلى كمال الاستشعار بضرورة التوبة إلى الله تعالى، والإقبال عليه في كل حال. لقد وقع الناس في حيرة من شأن هؤلاء، أيعذبهم الله تعالى أم يتوب عليهم! إنّ المجتمع المسلم كله قد استشعر عظم الذنب وحجم الخطر من جراء التخلّف عن الجهاد، وما قد يسببه من ضعف الأمة وهوانها على الناس، فبتخلف هؤلاء النفر وما ترتب عليه من عقوبة تربت الأمة، وتربى المجتمع. فيحذر الجميع من الاستهانة بتخلّف قلة قليلة عن الجهاد في سبيل الله. إنه وإن تاب الله تعالى على ذلك النفر بعد أن تجرّعوا مرارة الألم، وقطيعة المجتمع، إلا إنه لا يملك أحد أجله حتى ينعم بالتوبة في حال تخلفه مستقبلاً إلى يوم الدين، فيبقى تقديم العذاب في الآية مهيمناً على نفس كل من يفكر بالتخلّف عن الجهاد بعد ذلك اليوم. إنّ هذا الدرس يبقى منارة للناس إلى يوم الدين، فالله عليم بأحوال النفوس، حكيم في عدم الوصول بالناس إلى حال ميؤوس، فشرع العذاب ترهيباً، وشرع التوبة ترغيباً؛ لذلك كله، ورد الاقتران بين اسميه: العليم والحكيم ليؤكد هذه المعاني في نفوس المؤمنين، وأنّ سنّة الله جارية في قبول توبة من بادر إلى التوبة مخلصاً بها قلبه، والله تعالى أعلم.

إنّ الحكمة في تشريع التوبة بحق الطرف الآخر هي الوصول إلى الصلاح، "فيقبل –الله تعالى- توبة من تاب تكثيراً للصلاح"(1). قال الشعراوي: إنّ تشريع التوبة يجعل الظالم لا يتمادى في ظلمه، وبهذا يحمي الله المجتمع من شروره، ويجعل في نفسه الأمل في قبول الله لتوبته والطمع في أن يغفر له؛ فيتجه إلى العمل الصالح عَلَّهُ يُكفِّر عما ارتكبه من الذنوب والمعاصي؛ وفي هذا حماية للناس ومنع لانتشار الظلم والفساد. إذن، فالقتال له حكمة، والتعذيب له حكمة، والخزي له حكمة، والتوبة لها حكمة، والله سبحانه وتعالى حين يعاقب، إنما يعاقب عن حكمة، وحين يقبل التوبة فهو يقبلها عن حكمة(2). فلو أقفل باب التوبة لوصل الأمر بالناس إلى حال من اليأس والقنوط. وأدّى ذلك إلى انتشار الظلم والعدوان.

ج. كسب الإثم ووباله على صاحبه

إنّ أول المتضرّرين من كسب الإثم وفعل الشرّ هو من يفعل ذلك، فوبال ذلك راجع إليه في الدنيا قبل الآخرة، في هذا السياق تأكدت هذه السنة الإلهية الفاعلة في حياة الإنسان، ويرد هذا الاقتران متصلاً بها، في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾ (النساء) قال البقاعي: "إنّ وباله راجع عليه إذ الله له بالمرصاد، فهو مجازيه على ذلك لا محالة غير حامل لشيء من إثمه على غيره، كما أنه غير حامل لشيء من إثم غيره عليه، والكسب: فعل ما يجرّ نفعاً أو يدفع ضرّاً، ولما كان هذا لا يكون إلا مع العلم والحكمة، قال تعالى: وكان الله، أي: الذي له كمال الإحاطة أزلاً وأبداً عليماً، أي: بالغ العلم بدقيق ذلك وجليله، فلا يترك شيئاً منه، "حكيماً" فلا يجازيه إلا بمقدار ذنبه، وإذا أراد شيئاً وضعه في أحكم مواضعه، فلا يمكن

(1) ابن عاشور. التحرير والتنوير. ج 8، ص 4928.
(2) الشعراوي. خواطري حول القرآن، ج 1 ص250.

غيره شيئاً من نقضه"[1].

والتفت الشيخ أبو زهرة إلى ناحية نفسية لها أثرها في الإنسان فقال: "يصح تفسير كسب الإثم بأن يتحرّاه وتَتَدرَّن به نفسه، حتى يصير كسباً رديئاً لها، وذلك أنّ الشرّ إذا ارتكبه الإنسان خطّ في النفس خطاً، فإذا تكرر ذلك كثرت الخطوط السوداء، حتى يَرَبدَّ القلب، وبذلك يكون قد كسب الإثم، وهو الذنب المبطئ عن الله تعالى. ومن وصل الشرّ في نفسه إلى هذا الحدّ، فإنّ ذلك الذي اكتسبه لا يعود بالشر ابتداء إلا على نفسه، لأنّه أفسد فطرتها، وحوّلها عن طريق الانتفاع بها إلى إركاسها في الشرّ. وخسارة الشرير في نفسه أكثر من خسارة الناس فيه، ولأنه يصير من الشُذّاب الذين تلفظهم الجماعات الإنسانية، ولأنّ عذاب الله يستقبله، ولذا قال سبحانه مهدّداً بأنه عالم بما يرتكب، ولو أخفاه، حكيم، يضع لكل امرئ ما يستحق، فلا يتساوى عنده المسيء مع المحسن، وهو وحده المتصف بأعلى درجات العلم والحكمة[2].

وأرى أن يكون وصف الحكمة بإمهال ذلك الآثم ومنحه فرصة التوبة والإنابة مع علمه سبحانه بما يكسب من إثم ومعصية، فلو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا لعجل لهم العذاب، ولكن قضى سبحانه بأن يمهل ولا يهمل، وهذا لصالح العبد، وهو منتهى الحكمة التي تظهر مبلغ الرحمة الإلهية بالإنسان والعناية به!

خامساً: في المنافقين

النفاق داء خطير في المجتمعات الإنسانية، وقد حظي بعلاج عظيم في القرآن الكريم، فقد ذكره وعالجه في أكثر من سورة، وسميت إحدى سوره بـ "المنافقون". وهو صفة أو طبيعة في بعض النفوس، لا تتمكن معها من الالتزام بمبدأ، ولا الحفاظ على عهد، ولا الانضباط بشرع، تدور مع مصالحها حيث دارت، وتفارق الحقّ لأدنى منفعة، أو لأدنى أذى يلحق بها، وهي – لذلك- غير قادرة على حمل الأمانة، تستمرئ الظلم والباطل، وخاصة إذا استند النفاق إلى طبع البداوة من حيث جفاؤها أو بعدها عن مواطن العلم والتعلّم، فإنّه يكون أشدّ وأخطر، قال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ (التوبة) قال الطبري: "وإنما وصفهم جلّ ثناؤه بذلك لجفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسى قلوباً، وأقلّ علماً بحقوق الله"[3]. ويرد الاقتران هنا ليظهر كمال العلم الإلهي بالتعريف بطبائعهم، والكشف عن مكنونات قلوبهم، وخبايا نفوسهم، والصبر على أفعالهم بغية إصلاحهم، فإنّه لا يمكن لأحد مهما بلغ في العلم شأنه أن يعلم ما في نفوس الآخرين، فأسرار النفوس لا يطلع عليها إلا خالق النفوس سبحانه، ولولا أنّ الله كشف حقيقة بواطنهم، وأنهم أشدّ كفراً ونفاقاً لما تمكن المسلمون من

---

(1) البقاعي. نظر الدرر، ج 2، ص 316. وانظر: محمد بن أحمد الشربيني. السراج المنير (بيروت: دار الكتب العلمية، بلا تاريخ) ج 1، ص 383.

(2) أبو زهرة. زهرة التفاسير، ج 4، ص 1849-1850.

(3) الطبري. جامع البيان، ج 14، ص 429.

معرفتهم على حقيقتهم فالله عليم بهم، لا يخفى شيء من حالهم عليه. وهو سبحانه حكيم في بيان أنّ العزلة عن الناس وخصوصا في البادية سبب مؤدّ إلى الكفر والجهل والنفاق، ففي الحديث قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "... وَالْمُرْتَدّ أَعْرَابِيًا بعد الْهِجْرَة ملعونون عَلَى لِسَان مُحَمَّد يَوْم الْقِيَامَة "[1] وعلل ابن تيمية رحمه الله ذلك بقوله: "لأنّ هذا يفوته من مصالح الدين نظير ما يفوته من مصالح الدنيا أو قريب منه، فإنّ يد الله على الجماعة، والشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد [2]. وكأنّ سكنى المدينة والقرية أقرب إلى تعلّم حدود شريعة الله وحدود ما أنزل على نبيه.

ويرد الاقتران في سياق آخر في السورة نفسها، فيبين حال بنيانهم الذي بنوا، وهو مسجد الضرار الذي نهي رسول الله أن يُصلى فيه، لأنّه بُني لإيقاع الضرر بالمسلمين، وتحقيقاً للكفر، وتفريقاً للصف المسلم، ومنطلقاً لحرب الله ورسوله، هذه هي مقاصدهم التي كشفها الله تعالى، وقد أمر رسول الله بهدمه، فهدمه بعد عودته من غزوة تبوك[3]. ثم يخبر الله عن شأن ذلك البنيان، فقال سبحانه: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (التوبة) أي: لا يزال بنيانهم المسجد شكاً ونفاقاً في قلوبهم، قال البيضاوي: "والمعنى أنّ بناءهم هذا لا يزال سبب شكهم، وتزايد نفاقهم، فإنه حملهم على ذلك. ثمّ لمّا هدمه الرسول صلى الله عليه وسلم رسخ ذلك في قلوبهم وازداد بحيث لا يزول وسمه عن قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم قطعا بحيث لا يبقى لها قابلية الإدراك"[4]. فلولا أن تدارك المؤمنين رحمة الله لحلّ بهم ما حلّ من كيد المنافقين، ولدبّ بينهم الخلاف والفرقة، والشحناء والبغضاء...، هذه المعركة الخفية التي بدأت في النفوس وتحركت بها الصدور، وترجمت على أرض الواقع ببناء مسجد الضرار كشفها وأخمد نارها ربّ العزة تبارك وتعالى، فهو الذي أحاط بها علماً، وهو الذي قضى فيها حكمه الحكيم، فقال: "والله عليم حكيم"، أي: عليم بمقاصدهم وخفايا نفوسهم من بناء ذلك المسجد؛ ليحذرهم المسلمون، ويحتاطوا لما يحاك لهم في الداخل من مؤامرات تعصف بوحدة صفهم، (حكيم) في إبطال مكرهم، وتيئيسهم من النيل من هذا الدين وأهله، وحكيم في إجراء أحكام الإسلام عليهم؛ ليترك لهم فرصة التوبة والإنابة إلى الله سبحانه.

---

(1) نص الحديث: «آكل الرِّبَا وموكله ، وشاهداه إِذا علماه. والواشمة والمتوشمة، ولاوي الصَّدَقَة، والمرتد أعرابيا بعد الهجرة ملعونون على لسان محمد يوم القيامة رَوَاهُ النَّسَائِيّ من حَدِيث الشّعبِيّ ، عَن الْحَارِث ، عَن عَلّي «أَن النَّبِي - صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسلم - لعن آكل الرِّبَا وموكله..» الحَدِيث. ورواه الْحَاكِم فِي «الْمُسْتَدْرك» من حَدِيث مَسْرُوق. ثمَّ قَالَ: هَذَا حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم. وَرَوَاهُ ابْن حبَان أَيْضا من حَدِيث الْحَارِث بن عبد الله ، عَن ابْن مَسْعُود ، وَزَاد : «وكاتبه» وَزَاد بعد «المتوشمة» : «لِلْحسنِ» وَزَاد «و[لاوي] الصَّدَقَة». انظر: ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري. البدر المنير في تخريج الأحاديث والأثار الواقعة في الشرح الكبير تحقيق: مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال. الرياض: دار الهجرة للنشر والتوزيع، 1425هـ. ج 6، س 465.

(2) أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية. مجموع الفتاوى، (بيروت: دار الوفاء، 1426هـ) ج 27، ص 56.

(3) انظر: الطبري. جامع البيان، ج14، ص 468.

(4) ناصرالدين عبد الله بن عمر البيضاوي. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (بيروت: دار الكتب العلمية، بلا تاريخ) ص 1740.

الخاتمة

الحمد لله الذي وفق وأعان على إتمام هذه الدراسة التي خلصت إلى نتائج عديدة، أجملها في الآتي:

1. يعكس موضوع الاقتران بين أسماء الله الحسنى مظهراً من أدقّ مظاهر إعجاز القرآن الكريم، إذ إنّه يرسم الأبعاد التربوية والنفسية التي يمكن أن ترقى بالعبد في سلّم الكمال ظاهرا وباطنا، وترسخ مبدأ مراقبة الله في كل قول وفعل، وكل حركة وسكنة. ويحقّق هذا الاقتران أيضاً مبدأ الإقناع بكل الأحكام العقدية والتشريعية لما أنها كلها مبنية على الإحكام الذي هو الإتقان والإبداع، مما يعكس بالضرورة صورة المجتمع القائم بهذه الأحكام.
2. الحكيم اسم من أسماء الله الحسنى، والحكمة صفة من صفاته تعالى دلّ استخدامها في القرآن على معاني ثلاثة: إصابة الحقيقة والإتقان، ووضع الشيء في موضعه، والحكم وفصل القضاء. أما اسمه تعالى "العليم" فقد دلّ على إحاطته تعالى علما بكل شيء ظاهراً وباطناً.
3. الاقتران بين اسميه العليم والحكيم هو أكثر اقتران بين أسماء الله الحسنى وروداً في القرآن الكريم، فقد ورد ستّا وثلاثين مرّة. وتقدّم اسمه العليم على اسمه الحكيم في تسع وعشرين آية، وتأخر في سبع آيات فقط. المكي من هذه الآيات عشر، والمدني ست وعشرون آية، وأكثر سورة حفاوة به سورة النساء ذات الصبغة التشريعية.
4. تقدّم اسمه الحكيم على اسمه العليم في ثلاث سياقات جامعة هي: إثبات التوحيد ونفي ما يتوهّمه العبد من معتقدات بحقّه سبحانه، وإظهار الحق بإيتاء الحجة البيّنة والآية الكبرى، وإثبات الحشر.
5. تقدّم اسمه العليم في سياق رعاية مقام نبوّة محمّد خاصّة والأنبياء عامة، فقد حثّ الناس على الإيمان بالرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، وأمر بتوقيره، وأمره بالتقوى وحذّره من طاعة الكافرين والمنافقين، والتحذير من خيانته صلى الله عليه وسلم، وما يساور النبوة من هموم وظنون لأجل هذا الدين. وشأن النبوة في الاصطفاء والاجتباء.
6. تقدّم اسمه العليم على الحكيم في سياق جملة من التشريعات في مجال تنظيم الأسرة والمجتمع، هي: الإيمان بالله تعالى أساس بناء الأسرة، وتشريع المحرمات والمهور، وتشريع الاستئذان، وتشريع في حفظ النسل وصيانة الأعراض، وتشريع في الميراث، وتشريع في الزكاة، وتشريع في الكفارات: كفارة اليمين، وكفارة القتل الخطأ.
7. تقدّم كذلك في مواطن الصبر وعدم اليأس، مثل دعوتهم إلى الصبر على ما أصابهم يوم أحد، وحثهم عليه كذلك في صلح الحديبية، والصبر على قتال أعداء الله تعالى، والصبر على الوقوف عند أوامر الله التي تتصل بالولاية على بيت الله الحرام، ومنع المشركين من الطواف به على الرغم مما قد يصيبهم من ذهاب مصالح ومنافع مادية. وصبر الملائكة على استخلاف آدم بعد تزكيتها لأنفسها، والإقرار بأن الله عليم حكيم. وصبر نبي الله يعقوب على ما أصابه.

8. وتقدّم –كذلك- في مواطن إظهار سنن الله في الأنفس، وانحصر ذلك في ثلاث سنن مرتبطة بحال الفرد، هي: مشيئة الله الخالق فوق مشيئة المخلوق، والمبادرة إلى التوبة ضمان لقبولها، وكسب الإثم وباله على صاحبه.
9. وتقدّم كذلك- في سياق الحديث عن المنافقين، وكشف طباعهم وفضح مؤامراتهم في النيل من هذا الدين، وهو مما يقتضي العلم والحكمة في إجراء أحكام الإسلام عليهم ليترك لهم فرصة مراجعة النفس والتوبة.

Sources & References

- abn al'athir, almubarak bin mohammad. *alnihayah fi gharib alhadith wal'athar*, Tahqiq: tahir alzawi & mahmood altinahi (Beirut: almaktabah aleilmiah, 1399 h).
- albokhari, mohammad bin 'ismail. *aljamie alsahih*, Tahqiq: mustafaa albagha (Beirut: dar abn kathir, 1407 h).
- albiqaey, 'ibrahim bin omar. *nazm aldurar fi tanasob alayat wa assuwar*. Tahqiq: abdull razzaq almahdi. (Beirut: dar alkutub aleilmia, 1415 h).
- albayddawi, nasralddin abdallah bin omar. *'anwar atanzil wa'asrar altaawil*, (Beirut: dar alkutub aleilmiah, bila tarikh).
- abn taymiyah, 'ahmad bin abdulhalim. *majmuo alfatawaa*, (Beirut: dar alwafa', 1426 h).
- aljurjaniu ali bin mohammad. *altaerif*, Tahqiq: 'ibrahim al'abyari, (Beirut: dar alkotob alarabia, 1405 h).
- aljalil, abdulaziz nasir, *kitab*: walilah alasmaa alhusna. almaktabah alshamilah.
- Ibn hajar alasqalani 'ahmad bin ali. *fatih albari sharah sahih albokhari*. (Beirut: dar almaerifah, 1379).
- alkhattabi, 'abu sulayman, hamad bin mohammad. *'iqamat alduaa'*, *tahqiq*: 'ahmad aldaqaq, (Beirut: dar althaqafah alarabiah, 1412 h).
- alrrazi, mohammad bin omar, *mafatih alghayb*, (Beirut: dar alkutub aleilmiah, 1421 h).

- Ridda, mohammad rashid, *tafsir alquran alhakim alshahir bi tafsir almanar* (misr: alhayyat almisriat lilkitab, 1990).
- alzijaj 'abu 'ishaq 'ibrahim bin mohammad, *tafsir 'asma' allah alhusna*, Tahqiq: 'ahmad aldaqaq (dimashq: dar althaqafah alearabiah, 1974).
- alzarkashi, badr aldin mohammad bin abduallh. *alburhan fi ulum alquran*, Tahqiq: mohammad 'abu alfadl 'ibrahim. (Beirut: dar almaerifah, 1957).
- 'abu zahrah, mohammad 'ahmad. *zahrat altafasir*, (Beirut: dar alfikr alarabi, bila tarikh).
- assamirrai, salih, *lamasat bianiah*, tawthiq almaktabah alshamilah.
- 'abu alsuoud, mohammad bin mohammad alimadi. *'irshad alaql alsalim*, (Beirut: dar 'ihya' alturath alearabi, bila tarikh).
- alsharbini, mohammad bin ahmad. *alsiraj almunir fi al'iaanah eala maerifat kalam rabina alalim alkhabir*, (Beirut: dar alkutub aleilmiah, bila tarikh).
- alsharawi, mohammad mutawli. *khuatiri hawl alquran*. kitabat almuktabah alshaamilah.
- Ibn adil aldumshqi 'abu hafas omar bin alaa. *allubab fi ulum alkitab*. Tahqiq: adil abdullmawjood wazamiluh (Beirut: dar alkutub aleilmiah. 1419 h).
- Ibn ashur, mohammad attahir. *tafsir altahrir wa attanwir*, (Tunins: dar sahnun, 1997).
- Ibn ajibah, 'ahmad bin mohammad bin almahdi, *albahr almadid*, (Beirut: dar alkutub aleilmiah, 1423 h).
- alghamrawi, mohammad alzahry. alsiraj alwahaj alaa matn alminhaj (Beirut: dar almarif).
- alttabri mohammad bin jarir. *jamie albyan*. Tahqiq: 'ahmad shakir (Beirut: muasasat alrisalah, 1420 h).

– alqurtobi, mohammad bin ahmad. *aljamie li'ahkam alquran*, (Beirut: dar 'ihya' alturath alearabi, 1985).

– abn qayim aljawziah, mohammad bin 'abi bakr. *alrisalah alttabokiah*. (alqahirat: matbaat almadani, bila tariakh).

– almatoridi, 'abu mansur, mohammad bin mohammad. *tawilat 'ahl alsanht*, Tahqiq: majdi baslum, (Beirut: dar alkutub aleilmii, 1426).

– almatoridi, 'abu mansur, mohammad bin mohammad, *kitab altawhid*, tahqiq fatah allah khalif, (dar aljamah almisriah - al'iskandaria).

– almawirdi, 'abu alhasan ali bin mohammad. *alnoakt wa aleyun*. Tahqiq: alsayid bin abdullmaqsud, (Beirut: dar alkutub aleilmiat, bila tarikh).

– Ibn almolaqin, siraj aldin 'abu hafas omar bin ali bin 'ahmad alshshafiei almisri. *albadr almunir fi takhrij al'ahadith wal'athar fi alsharah alkabir*, Tahqiq: mustafa 'abu alghyt wa abdullah bin sulayman wa yasir bin kamal. (alryadd: dar alhijrah lilnashr waltawzie, 1425 h).